معجم
الأشواق
بسام حجار
المركز الثقافي العربي

مُعْجَمُ
الأشـــواق

* معجم الأشواق

* تأليف: بسام حجار

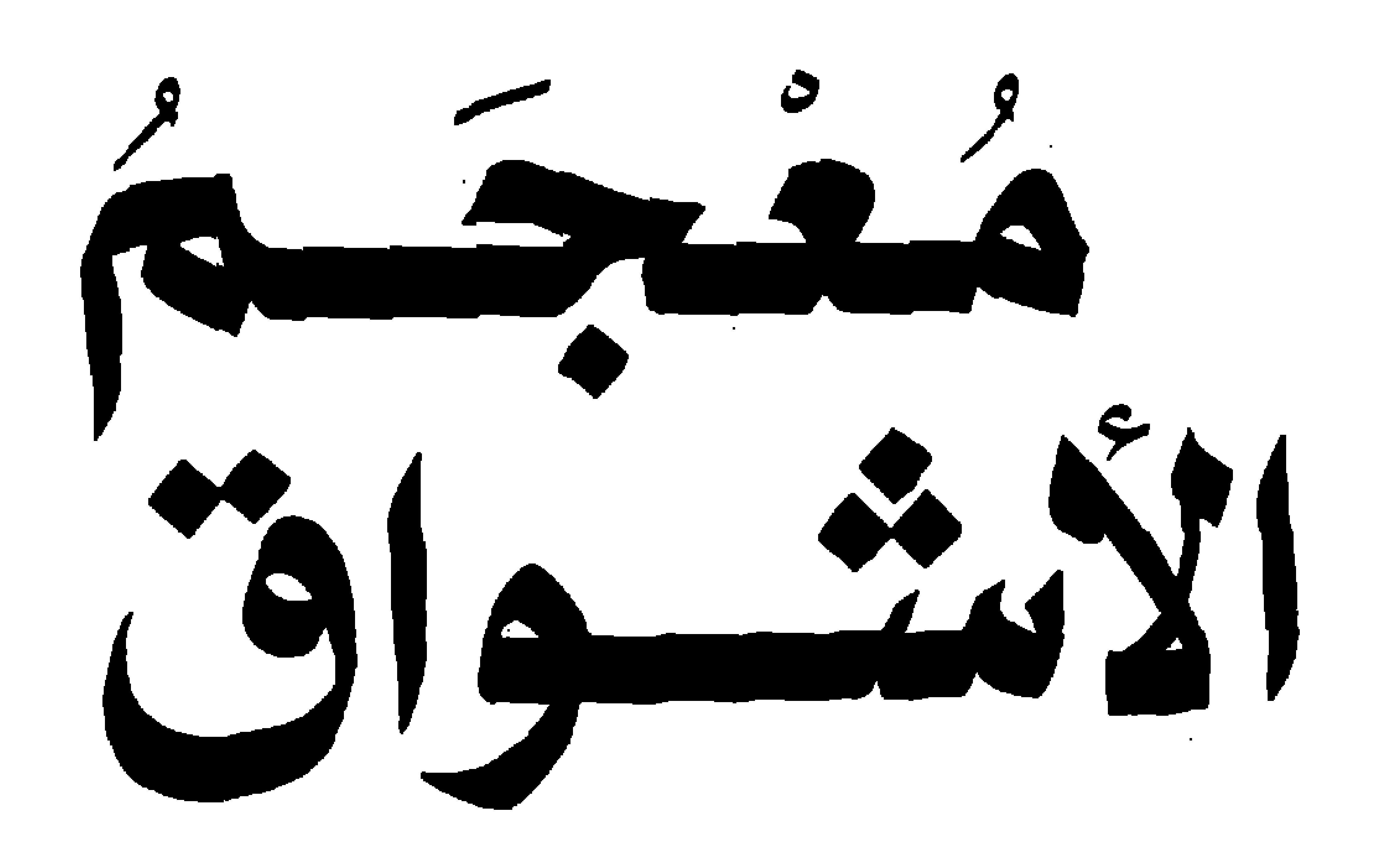
* الطبعة الأولى، 1994.

* الناشر: المركز الثقافي العربي

□ بيروت/الحمراء - شارع جان دارك - بناية المقدسي - الطابق الثالث.
• ص.ب/113-5158/• هاتف/343701-352826/• تلكس/NIZAR 23297LE/

□ الدار البيضاء/• 42 الشارع الملكي - الأحباس • ص.ب/4006/• هاتف/303339-307651
• 28 شارع 2 مارس • هاتف/271753 - 276838/ • فاكس/305726/.

بسام حجار



المركز الثقافي العربي


إليكِ

بلاغةُ الجناس المُملّ

I

الشفافيةُ، والصدقُ مع الذات، وهوَ المَبْـدأ المولّدُ للشفافيةِ، جعلا العالمَ بلا مظهر. بلا مظاهرَ أو تَوْريات. جَعَلَتْه خلواً من الإغْواء. والإغواءُ، من الفـردوس المسيحي وحكايـة الأفعى والتفاحـةِ إلى كتبِ جيرار دوفيلييه وشيري أو، علامةٌ لعنةٍ وسقوطٍ في التَجْرِبة والخطيئة. ذلك أن الإغواءَ تبادلٌ (وتَبَدُّلٌ طـوعي) للمظاهـر. إنـه فن التحـوّلِ بـامتيـاز. إذ لا إغواء دون الانتشاء بأن لا تكون ذاتك. وفيه شبهة من الكذب، بمقدار ما فيه من الحِيْلَة. فـالمغويّ مكّـار، ولا وجود لـه إلا إذا اقترن وجـوده برغبتـه الطاغية في أن يظهر على هيئة ليست له في الأصل. لـذلك يتَقـوّم نهجُ الإغـواءِ بدايـةً من الإحسـاسِ العميق بالتشاؤم. فمن يَتوسّل الإغواءَ ليس العاشق الذي لا يُحرّك ساكناً ولا يَدَ لَهُ في غرام النظرة الأولى المتبادل.

بل هو الذي يحصد عدم الاكتراث واللامبالاة بدايةً، وقـد لا يظهـر في عين الآخر على صـورة محببة. لذلك كانت الغِوايةُ إلى خفـوتٍ في عصر

الـرومنطيقيـة، وإذا استثنينا عصرَ المَشَاعـر النبيلةِ والجموحِ العاطفيّ، لما كان للغواية حقبة ازدهرتْ فيها. حتى السوريالية صنّفت الإغواءَ في مرتبة أدنى من المصادفة والتلقائية وصدمة الاتفـاق المجاني.
كذلك حقبة أيديولوجيـات التحرر وسـطوة الإعلان والعناية بالجسم للحفاظ على «حقيقته الطبيعيـة»، على حـريته المـزعومـة. واستند خـطاب الإعـلان والطب والأخلاق إلى «بدهية الجسد»، وشَبه الجَسَد لذاته، لحقيقة له مزعومة. وكانت غلبةُ الانسجام، وانْطَوَت الغِوَاية، وانكفأ الإغواءُ وراجت الإباحـة.
وأصبح مشهد العالم مُملاًّ. كل شيء يُشبه ذاتـه، ويشبـه كِلَّ شيء. صـورٌ متعاكسـةٌ لمبدأ الحكمـةِ الوحيد: الشفافية. فأصبحت العينُ لا ترى المظهرَ، بل خلاله ما ينمّ عن أصالة فيه، وصدقية وحقيقة.

لذلك ما عادت الأشياء تغوي. وفي سيل من جماليات التفاؤل، في المسرح والسينما والتلفزيون، وفي أنواع الكتابة قاطبةً، لا يعثر الرائي أو القارىء أو المشاهدُ إلّا على ما يؤكّد شبَه كلِّ شيء بذاته.

بَلاغةُ الجناسِ المُمِّل. لا الافتراق المُحيِّر. بلاغة الإنسجامِ لا شقاق التشوّق.

حينَ يوقظُ اللّمس الجنون

[فَرِقَ لهما يسوع، ولمس أعينهما فأبصرا، لوقتهما، وتبعاه].

(متّى ٢٠: ٣٤)

II

أعمق لحظاتِ التَخاطُب بينَ متكلِّمَيْن أو صامِتَيْن، المُلامَسة. لا بل قد تكون لها قدرة غريبة على الشِّفاء. والمثالُ هنا ليسَ المعجزة فقط. فالشفاءُ إبراءٌ من العِلّةِ في وَجْهٍ منه، لكنّه أيضاً، على زَعم مفسّري ابن سينا، صوغُ الجوابِ الشافي، أي إشباع المُخاطبةِ بأن تنالَ مرادَ خطابِها.

وما يَجْعَلُ اللَمْسَ بين المُحبّين ذروةَ المخاطبةِ إذ يَنال من هذه العياءُ الكلاميّ، هو أنه (أي اللمس) إفضاءٌ إلى الآخر باليَد، أو إجراءٌ لليدِ على مَوْضعٍ منه. ولا يكتفي المحبُّ بأن يكون اللمسُ صلةً بالآخر عبر الحاسّةِ الصَمّاء. لذلك يستحيلُ اللمسُ في إلحاح الرغبةِ المُضْمَرةِ تَلمُّساً. وإذا كان من معنى اللَمْس، لغةً، الطَلَبُ (لَمَسَ الشيءَ أي طلبه) فإنّ تلمُّسَ الشيء هو تطّلبه مرةً بعدَ الأخرى.

والدلالةُ هنا أعمق من التّطلب في السؤالِ إذا ألحّ في نيل الإجابةِ أو الإستجابة.

ليس مصادفةً أن يَلْجأَ المحبونَ إلى صِلَةٍ ولو خاطفةٍ بالآخر عبر اللَمْسة، فأحياناً تكون، على غرار المُعجِزة، إعجازاً في إقامة الإتصال، ومنه الفهمُ، عبر المُدَركِ الحسّي المباشر. فالمركوز في طبع الأيدي أنها لا تكذب، في حين يَكذب الكلامُ كثيراً حين يَصْدُق. والوهمُ الأجمل في صلَة المُلامَسة أن اللُّمْسَ لا يدعو إلى برهانٍ منه يُستَنتَجُ الصدقُ أو البُطلان. فاللّمْس ليسَ خطاباً ولا سلوكاً. بل ربما كان الحقيقة التي يَصِفها الدّقّاقُ بأنها دَهَش: إنها ذُهولٌ عن القَصْدِ وانصرافٌ عنه إلى حسّيتها المجرّدة. وهي لا تَحْسُم في أمرِ المعنى لأنها التأويلُ المتواصلُ للمعنى. ولا تستقيم لها سويّةٌ أو تمام. والمحبُّ الذي لا يمنع يدَ لامِسِه هو مَنْ ليستْ فيه مَنَعَةٌ أي من لا يَلْجأ إلى الكلامِ لتأكيد الرغبةِ المتبادلةِ في الاستجابة. ذلك أن اللمسَ، وهو مسٌّ إنْ لم يَقْتَصر على اليَد، يُوقظ في الجَسد المتحصِّن في حيادِه الأخلاقي، إعتمالاً

للأحاسيسِ الهجينة. فالجَسَدُ يستيقظُ حين يُمَسُّ، وحين يُمَسّ فلانٌ (على المجهول) مسّاً يعني أنّه جُنّ. ومِنْ مظاهر المسّ اخْتلاطُ العقلِ (الجنون) و «خبلُ الفؤاد» (التولّه). وما تثيرُه اللَمْسةُ، مهما جَرَت خَفيفةً، هي مواضعُ التَحريقِ حيثُ تَجري. فالمسُّ أيضاً هو أول ما يناله المرءُ مِنَ الحُمّى. والحمّى مدعاةُ هذيان. أي أنها اختلاطٌ هي أيضاً لا في الحَواس فقط، بل وفي مَلَكَات العَقْل أيضاً، إذ تَصْعد أبخرةُ الحُمّى إلى الرأسِ ويُخلّط الرجل/ المرأة (المحب أو المجنون) في كلامه.

واللَمْسةُ أيضاً اختراقٌ لكفايةِ الجَسدِ بذاته. لا بل هي أَمَارَةُ انتسابٍ إلى حُضورِ الآخر الذي عَلِقه. وتأكيدٌ للهجنةِ التي ينبغي أن يكون عليها جَسدُ المحبِّ في حبِّه الآخر. هجنةٌ هي اختلاطٌ ومسٌّ ولمسٌ وقبولٌ لسوى الذات، إذ يصبح السّوى هو الحدُّ والتعريفُ كأنه الأنا. يقول السري السقطي: «لا تَصْلُح المحبّةُ بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر: يا أنا». ومثل هذا القول يجيده المسُّ (أي عموم اللَمْس لليدِ وسواها من الأطراف) لما يُحلّ

في السويّ من اضطراب. والمُضْطَرَبُ هو مَحَلّ الهجنة والأخلاطْ. والأخلاطُ من الناس، لَفِيْفُهُم، وما لا يَجْمَع بينهم نَسبٌ أو قرابة أو صلة أرحام.

أيكون هذا ما اختلطَ به عَقلُ مجنون بني عامر إذ بُنيَ اللّمْسُ لديه على المجهول فانشقّت لامُ نفسه عن نفسه وصارَ اللّمْسُ مسّاً، أي اللّمس بجماع الجسدِ على صفحةِ الغيابْ.

يراك المحبُّ... يجعلك موجوداً

[المناظر العلى: من حيث هي مناظر لا وجود لها إلّا بوجود الناظر كالمقامات لا وجود لها إلّا بوجود المقيم فإذا لم يكن ثَمَّ مقام لم يكن ثمَّ مقيم؛ وإذا لم يكن ناظرٌ فما ثمَّ منظورٌ اليه من حيث ما هو منظور إليه. فهلاكهم إنما هو من حيث عدم الناظر (...)]

(إبن عربـي: «ترجمان الأشواق»)

[«Esse est percipi»]
[«أن يكون المرءُ هو أن يُرى»]
(خورخي لويس بورخيس)

III

إذا كان ليسَ ثمّة مَنْ يَنْظُر إليكَ ويَـرَاكَ، فَأَنتَ إذاً في حالةِ فُقْدان مَظهَرك، ويَسَعك القولُ، وإن كان القولُ عِبارةً عَن إحسَاسٍ مؤقت، إنّك ما عُدتَ موجوداً، أو، في الأقلّ، ما عدت حاضراً إذ يُحال وُجُودُك على صيغةِ الغِيابِ والغَيْبَـة. فالصّلةُ بينَ الحُضورِ والعَيْنِ التي ترى حاسمةٌ لغةً ومعنىً. فالعينُ هي عينُك التي تُبْصِر فترى الأشياءَ مِنْ حَوْلِك والعينُ هـو الحاضـرُ من كل شيء. بـل هـو ذاتُ

الشيءِ ونفسُه وما يتقوّمُ بهِ شيئاً. وحين يُؤكّدُ الخبرُ أن: ما بالدار عينٌ، فهذا يعني: ما بالدار أحدٌ. ومن صار خَبَراً بعد عَيْن، تقول العرب، هو مَن أَدْخَلَته الروايةُ في غَيْبَةِ كَانَ (أو) مَا كَانَ، مُفْتَتَح الحكاية التي تُسرَدُ وتُعلّق أحداثُها على حافة الرَيْبِ بين أن تكون حقيقةً أو وَهْماً.

هذه الصلةُ المُفَارقةُ بين الحُضور والعَيْنِ من جِهَةٍ، والغَيْبة والخَبَر من جهةٍ ثانية، تَجْعَلُ البَصَر أكثر من حاسّة تضافُ إلى حواس أخرى، خصوصاً في لغة المحبّين وذوي الشغف. وليس من المغالاة في شيء هنا زَعْم العَاشق بأنَّ البَصرَ، كالمُحادثة، جِلْدُ آخر، على غِرارِ اللّمْس، يُسْتَكْمَلُ به الإطمئنانُ المُتكرِّر لحُضورِ الآخر وما يعنيه ذلك من استجابة. إذ يكفي أحياناً أن تكون حِيال الآخر مُبصراً فتراهُ للتثبّتِ من أنّه يَراكَ فتأنس إلى غِبْطة الإحساس بأنّكَ حَاضرٌ له ولم يَطرُدْكَ الغِيابُ إلى عُزلة مُخيفة. تَراهُ، أو تَلحّ عليكَ الرغبةُ في رؤيته تكراراً لكي تطمئنّ إلى أنّك ما زلتَ كما أنت، وإلى أنّه ما زال كما هو

ولم يُبدِّل الزمنُ، مهما كان ضئيلاً، شيئاً من أُلفِ اللقاءِ السابق.

ذلك أنّ الصلةَ بالإبصارِ إعلاءٌ لشأنِ المَظْهَر والإيماء وتأويلِ المُضمَر في كلِّ شيء. والمُضْمَرُ لا يَتَبَدّى إلاّ لمحاً وعفوَ خَاطر. والشغفُ (أليس هو قوام صلة المحبّين؟) لا يُطيق السَتْرَ أو الكتمان. الشغفُ مشهدٌ قبل أن يكون إضماراً. ليس ذلك لضعفٍ في طبائعِ المُحبّ الذي تسترقّه المَواجُدِ، بل لأنَّ الشَغَفَ لا يكون إلاّ مَرئياً، مُعَرَّضاً لعَيْنِ الآخر. إلاّ أنّ حدَّ الإفصاح هذا يبقى مُلتَبساً. فما ينبغي أن يُرى (ويُفْصَح عنه إيماءً وتلميحاً) هو الجهدُ الذي يُبذَلُ صريحاً لإخفاء الشغف والتكتّم عليه. فالآخر مُشاهدٌ لشغفي الذي أُحاول كتمانه فيُفصح عنه الكتمَانُ لأنّ الجسدَ (حركته) لا يملك قدرةَ الكلام على التحويل، وليست لسيماء الوَجْهِ أو طَرفةِ العَينِ أو ظلّ الابتسامةِ، قدرة الإستعارةِ والتكنية والإبدال. وما يُعَقْلنه الكلامُ من شَغَفي سَتْراً يُظهِرُه مُثُولي أعزلَ الحيلة أمامَ عينِ الآخر. فالمثولُ حضورٌ خالصٌ. فعلُ ابتداءٍ يَسبق العبارةَ والتأويل.

يقول فرنَاندو بسّوّا، الشاعر، أن العالم من حـولِنا ليس مادةً (أو موضوعةً للتفكير) بل هو بِداية مَادةٌ للإبصار. مملكةٌ للعينِ التي ترى وتَصْنَعُ فيما ترى هيئةً للأشياء. في اعتقاد قديم أن عينَ الرائي هي التي تُضيء الأشياء من حولها فَتُصبح مرئية. كـأنّ الأشياءَ قاطبةً حالةٌ في الظلالِ أو راكـدةٌ مسطّحـة كالأشْكَالِ السائلةِ ثمَّ تُفْتَحُ عَيْنٌ فتُبْصرُ الهيئةَ التي يَنبغي أن تكون عليها الأشياء. تُصبحُ عين الشيءِ، أي ذات الشيء ونفسه.

في كلام لا يجد تمامَ عبارته إلاّ في حدسِ الأعمى الهائل، أمنيةٌ هي سحر الإبصار كله: أود أن أرى لأعرف كيف يُرى.



ترجمان الروائح

IV

عندما اهتدى نوڤاليس، في حواره الشعري الصامت إلى استعارة المرأة/ الوردة، كانت المخيّلة الإجتماعيّة، وبتأثير من المناخ الرومنسي، قد أرست قيماً جديدة، وسلّماً جديداً للمناقب والحساسيّات، فأحلّت العطور (الروائح) الخفيفة (ومصدرها أنواع الزهور والنباتات) محل العطور القويّة النفّاذة (الحيوانية المصدر كالمسك والعنبر وطيب الزبد... إلخ). وإذ ذاك رَمَت المناقب الخلقية العُريَ (المرئي) بالمحرّم، ما أدّى إلى ارتقاءِ الشمّ (الحاسّة) مرتبة لم تكن له من قبل. فبعد أن جعل «بوفون» الشمّ عبارة عن الحيوانيِ في الإنسان، وبعد أن استبعده كانط من حلقة الإدراك الجمالي، إلى التسفيه الفرويدي الذي لا يُعادلُه إلاّ شرح «الأُطيَبَيْن» و«الأُخْبثَيْن» في لسان العرب، استطاع الحلمُ الرومنسي، من نوڤاليس إلى نرڤال، أن يُعيد الحاسّة المرذولة (لأنها كاللّمسِ مَلَكة الغوغاء، كما صنّفها الأقدمون) إلى مكانتها في المسلك الغرامي وخطابه. إلاّ أنّ ما استردّته الإستعارة الرومنسية من

شغفها بالروائع، هو الشبه بالمرأة الطيف، التي لا تُشهر ما يجعل منها محلّ رغبة بل تترك، في عبورها، أثراً غيرَ ماديّ، خفيفاً، لكنّه يتريّث ويدوم في حاسّةِ العاشق ومتخيّله. كأنَّ الصلة بالروائح أشبه بالنزوعِ إلى التلصُّص، إذ يتمّ الوصال عبر المسافة، هناك بوساطة الإبصار وهنا بوساطة التنفّس، لا بل «تنشّق» الآخر، وتنسّم أثر حضوره بعد الفوات. ذلك أنّ تريّث الروائح التي يُشيعها عبور الآخر يُنمي الشغف ومعه الإحساس بالندم. ويدعو إلحاح ما يُسمَّى «الجمع العصابيّ». وقد يكون هذا «الجمع» هو عصب الكتابة، أو في الأقلّ، عصب الترسّل أو المراسلة. غوستاف فلوبير لم يحبّ لويز كوليه إلا باستعارات الروائح الخفيفة (من النرجس إلى الرند إلى زهر الليمون) التي يتردد ذكرها في رسائله إليها. أمّا بلزاك فظلّ نثره أسير الروائح الطبيعية للجسم الأنثوي الذي «يُشيع» ضوعاً من الرّقة التي لا يصادفها المرء إلا في رقّة الأزاهير. والوصف لدى بلزاك لا يملك إلّا أن يعبّر عن هُجاسه الشميّ ومصدر استيهاماته: الشَعْر أولاً، والأجزاء الحاسرة من الجسم.

زولا، هو أيضاً، مكث حائراً، وفي مضمر وصفه الواقعي لهاجس «النظافة»، والأدقّ، الرائحة التي تنبعث من النظافة، كأن الرائحة لديه تنبعث من مُزيلها (مزيل الرائحة)، لأنّ صورة البورجوازي آنذاك تطابق هذا التوهّم. أضفى زولا طابعاً دراميّاً على الروائح بجعله البصر والسمع (وهما حاسّتا الذهن والإدراك الجمالي) في سويّة الحواسّ الدنيا كالشمّ واللّمس. وإضفاء الدراميّة لا يخلو من توهّم للشغف على أنّه زمٌّ للنفس والأهواء وتمالكٌ للإفصاح وانقطاع يُطيّبُ لحظات الوصل.

غلبة الروائح الخفيفة إذاً تكون غلبة الدعة، غلبة ما يُثير في الأنثوي دون إباحة. أمّا الروائح القويّة فهي مُبتغى مناقب الإحتدام. الفطرة. العناصر الحارّة. فكانت هي عطور وروائح ما بعد الثورة الفرنسيّة لاقترانها بهوس القتل وسفك الدماء. لكنّها أيضاً استيهام الشغف بالجسدِ على ما هو عليه. ولم تأفل استعارة المرأة/ الوردة/ زهرة الزنبق البلزاكية إلّا مع شارل بودلير، الذي أدخل إلى وهم «الفردوس» المنزلي، وهو الحيّز الحميم لهجاس

النظافة والروائح العطرة، ملغمةً من الروائح الحارّة التي هي مزيج من رائحة الجلدِ الطبيعي والعَـرَقِ والمسكِ ووخم الغرفِ الرطبة والأسرّة المُستخدمة إنّه عطر المواخير.

وما يختلفُ في استيهام الـرائحة ليس ذائقـة الفـرد، بـل المتخيّـل الإجتمـاعي بـأكمله. القيم والعادات والروابط الأسريّة. . . حتى تصميم العمارة والإنشاء.

(١) باستطاعة القارىء أن يعثر على تاريخ أوروبا مثلاً، في الوثـائق والمحفـوظات التـاريخية، كمتن يتقـوّم بسيـاقـة من الخـطوب العظمى. وباستطاعة من هو أكثر خفّة أن يقرأ التاريخ إيّـاه في الهوامش. لمثل هؤلاء كتب آلان كوربان «الوخم والنرجس»، أو تاريخ الروائح.

الإصغاء ميلٌ إليك

[(.. فهي الإعتقادات ستور عليها، لذلك تُبْصِرُ الشخْص ولا تُبْصِرُ الشخْصَ ولا تبصرُ ما اعْتَقَدَهُ، إلّا أَنْ يَرفع لكَ السَّتْرَ بسَتْرٍ آخَرَ وهو العبارة (..)]

(إبن عربـي)

V

ثمة في صلةِ المحبّين ما يُلغي التَخاطُب، إذ يُقِيمُ التخاطبُ وَسِيْطاً (هـو تبادلُ الكـلامِ) فلا يكونُ وِصَالُ المَحَبّةِ على تَمَامِه. ذلك أنّ السَمْـعَ حَاسّةٌ، على غرار أخواتها الشهويّـات، لا يَتَحصَّلُ فِعْلُهـا إلّا بالتَّمَاسّ. لذلـك تَسْتَبْدِلُ لُغَـةُ المُحبّينَ البَيَـان بالـمَسَـارّة والسِرَار ولا تـرومُ من السَمْعِ إلّا أَخْلَصَه، أي الإصْغَاء والإنْصَاتْ. لأنَّ في الإنْصَاتِ تَنَبُّهاً وَيَقظَةَ حَواسٍّ (توفُّـزاً وانتظاراً) وفي الإصغـاءِ ميلاً يُحَاكي إمَالَةَ الجِسْمِ إلى الجسمِ طَلَباً للكَنَفِ والسـرّ. فالصَغْـوُ هُوَ المَيْـلُ، والسَرَارةُ هي محضُ النَسَبِ وأفضلُه. وليسَ فـي مَـيْلِ الـمُحـبِّ إلى المُحبِّ ما يَفُوقُ تَوْقَهُ إلى الإنتسابِ إليه. فحين يُسرُّ بما يَكْتُمه يُفضي إليه لا بالمعنى الذي يُضمرُه السرُّ

بل برغبتِه هُوَ في أن يَمِيْلَ وَيَنْتَسِب.

لا شيء يُستأنفُ في كلام المحبّين لانقطاع المعنى. يُصْغي المُحبّ، أي يَميلُ إلى المُحبِّ بسمعه، وما يتحصَّل في سماعِه ليسَ العبارة التي تُفْضِيْ إلى معنى أو التي تَجْعلُها وفرةُ المَعَاني فيها عرضةً للتأويل، بل هو اللفظُ عَيْنُه، مُجسَّداً، يُعادُ ويُستعادُ تَكْراراً. فيكون أشبه بكلام المُحال، وَفْقَ صِنافةِ الخَليل بن أحمد، حين قال إنَّ المُحالَ هو كلامٌ لغيرِ شيء. والمحالُ هو أقربُ النُعوتِ لِكلامِ المحبّين، لأنّه، بين اللغو واللغط والكذب والمستقيم (وهي مراتب الكلام جميعها)، الكلامُ الذي لا يُفضي إلى العلم. فاللّغْوُ هو المُنَاخُ الكلاميّ الذي يَسُودُ صِلَةَ الصداقةِ، ويُخاطِبُ عموم السَمْع دون ميل أو إمالة. أمّا صِفَة العبارة التي تسودُ صِلةَ المُحبّينَ فهي القول لا الكلام. لأنّ القولَ، وهو نعتٌ إلَهي، له أثر في المعدوم وهو الوجود، كما كتب إبن عربي، والكلام، وهو نعتٌ إلهي أيضاً، له أثرٌ في الموجود وهو العِلْم. وما يَتُوقُ إليه المُحبُّ ليسَ العلمَ بمحبّةِ الآخر، بل أن يكونَ

موجوداً بمَحَبّةِ الآخرِ. والكلامُ يفِيْدُ الخَبَر والوَصْفَ والتَعْليـلَ والقيـاسَ والاسْتِنْتَـاج، وهي ليست من أغراضِ المُحبّينَ لأنّ المركـوزَ في طِباعِهم يَتَقـوّمُ بالإشاراتِ الأبسط ودقائقِ اللمحِ أو الإيمـاء، فما يُدركُه المُحِبّون عِلماً لا يَتـأتّى مِنَ العبارة بـل مِنَ الحَدْسِ الذي يُشيعُهُ الحضور. وما يتلقّفه إنصاتُهم هو التَكْرار. تَكـرارُ البَوْحِ تـامّاً والـذي لا يحتمل إغْفـالَ مَتْنِ السؤالِ في مَتْنِ الإجَـابَـة: ـ تُحبّني؟ يكون السؤال. ـ أجَل! تكون الإجابة. لكنها الإجابة غير التامّة. فهي تَسْتَجيبُ لصيغةِ التخَاطُبِ في بَيان التَسـاؤل الـذي يُفضي إلى علم. أمّـا أن يكـون الجواب: ـ أُحِبُّك! فيجعلُ من تَكْرارِ القَوْلِ (وإن بلَفْظِ وحيـد) في مَتْنِ الجَـواب انتسـابـاً إلى مَتْنِ السؤال وسـائِلِهِ؛ إنّـه تَحَقّق الحُضُـوره لا تَحَقُّق العِلْم. إنّه الإيجاد المُتكرِّر للمُحبِّ بِوَسَاطَةِ العِبَارةِ التي تُرَدِّدُ على الدَوام الشيءَ عَيْنَه. حتى تبدو في آخر الأمر كأنّها كلام لغير شيء.

لذلك، ربما، لا تُعقَد المُحَادَثَةُ بين المُحبّين إلّا في انتظام فتراتِ الصَمْت. وهْوَ صَمْتٌ لا يعني

الاستدراكَ أو التأمّلَ أو الحَيْرة. بل هو الصمتُ الذي يَجْعلُ الإصغاءَ حَاسّةً أخرى تُبْطِلُ السَمْعَ وتَردّ النُطْقَ بما هو لَفْظٌ إلى النُطْقِ بما هو انفِعَالٌ وإدراكٌ. وعندئذٍ يُصبحُ الإصغاءُ مزيجاً من حَواسٍّ أُخرى: البَصْر، لأنّ حَذَافيرَ القَولِ تَستحيلُ صُوراً وكناياتٍ اللمس، لأن المَسارّة مُلامَسة ذِهْنية؛ ألشمّ، لأن المسارّة مَيْلٌ وقُربٌ في كنفِ العزلةِ التي تُخلي المكانَ من أي أثر سوى الرائحة.

وسؤالُ المُحبِّ، مُتكلّماً أو صامتاً، تكرارٌ لِرَغْبة وَحيدة: مَنْ أكونُ في عَيْنَيك؟ وإصغاءُ المُحبّ تكرارٌ لتوقٍ وَحيد: أن يأتي الجوابُ ولو غامضاً. فالجوابُ هو الذي يُمسكُ يَدَ المُحبِّ ويَدلّه إلى المرآة، حيث صورتُه، ويقول له: هذا أنتَ، في عينيَّ، وما تكونُه في عينيّ هو الحقيقة. والحقيقة تامّة إذ تُقال مرّة واحدة، ولو مؤقّتاً، وما يُقالُ يُعلَمُ ولا لبسَ فيه أو حيرة.

لذلك لا تقوم صِلةُ المُحبّينَ بين المُخاطبة والإصغاء، على الكلامِ المُستقيم (الخليل بن

أحمد)، أي كما يُقالُ اليوم، على المحادثة. بل على الصَمْتِ الذي تُعقد المُحادثةُ لتلافيه عَمْداً. لأنّ قول المُحبّين، مهما تعمّد اللَغو واللَغْط والهَذْرَ والتنوّع والعمومَ، لا يُفصِحُ إلاّ عن عبارة واحدة.

المغايبَة!

VI

أنتِ غائبة. لا يَنْقطعُ سياقُ التَخاطب. ما يَتبدّل فقط هو أنّ الصِلةَ لا تقومُ الآن على المُخاطبةِ بل على المُغايَبَـة. أُغايِبُـكِ خِلافَ أُخَـاطِبُكِ، أي أَجْعَلُ من الحِوار الداخليّ، الذي يُخاطبُ غيابَكِ، نَسيجاً من الصوَر والإشارات، ومُعْجَماً لما يَظلّ أثراً منـكِ. ليسَ التـذكـارُ حَـرفيـاً، وليْسَت الـوقـائعُ والمَلْمُوسات والمُدرَكَات على أنواعها. بل المَشْهدُ المُتواصلُ لمـا لـم يَحدُث بـالفعل. الـواقعُ الـذي مضى، مُحرَّفاً ومبنيّاً على ما تراهُ الرغبـة، على ما يَتدارَكه الخَوفُ. فالمُغَايبةُ هي اسْتِدْراكٌ لزمنٍ مَيْت لا تكونينَ أنتِ فيه. وهي استـدراجٌ لفترةِ حِـداد، أَقْبَلُهَا عِوَضاً لِشدّةِ ما يَخْدَعُنِي الواقعُ، وبإصرار، لا أكفّ عن استدراجِه لخداعي. ذلكَ أنَّ الغَيَابَ هو القَبْر، أيضاً، ولغـة: غَيَّبهُ غيـابُه: دُفِنَ في قبـره. وغِيابُكِ هو الذي يَجْعَلُني حاضراً في كلّ شيءٍ إلاّ في تَمـامِ رَجـائي ورغبتي. لا أصحـو منـكِ إلاّ بالنسيان، مؤقّتـاً، أُخالط الصَحْب أو أُزاولُ عَمَـلاً وأَحسبُ أنّي شُفيتُ إذ يَسْتَردُّني شأنُ الحياة. غِيابُك

يَنْتَشِلُني من الغَيْبةِ حِيَالَ العالم لكنّه يَرميني في الغَيْبةِ حِيَالَ الأنا، أنا العَاشِقُ الذي يَتَعَيَّن بالإضافة. . . وفقط بالإضافةِ إليكِ. وغِيَابُك هو انتظاري. فِنَاءُ الصَمْتِ الذي يُنسَجُ فيه خَبرُ اللقاءِ المُقْبِلِ، على غِرارِ ما كانت تنسجُه أَيَادي النساء، في شَغَفِهِنّ المَكْتومِ، في انتظار الأزواجِ (المحاربين، التجار، جوابي الآفاق، المغامرين. . . إلخ) الغَائبين. لذلك في المغايبة تؤنَّث العبارةُ دائماً، كمثلِ قولِ الشعر. إذ يَجْعَلُني الإنتظارُ مُؤَنّثاً، لا في المَشَاغلِ التي تردُّني إلى النَوافِلِ غيرِ المُنْتجة، بل في انتحالي هَوَاجِسَ الإنتظارِ الأُنثوي وعالَمه ودلالاته. وما يُعيدني إلى الداخلِ، الحيِّز الحميم، هو ما يَرفَعُ عني صِفةَ الاجْتِماعِ والعُموم والقَابليّةِ المُثْلى لإنكار العزلة والخروج عليها. وإنكَارُ العزلةِ هو تَنَكُّرٌ لما تَتَقَوَّمُ به الصِلَةُ الغَرامية. عزلةُ الذَاتَيْنِ معاً وسويّاً، عزلةُ مَنْ يُدرِكُ حتى في اللقاءِ أنَّ اللقاءَ هو لا زَمَنُ أنا العاشق. لأنّ اللذّةَ والوعد وحتى الرجاء، لا قِوَامَ لها إلّا في ما هو مُرتجى وزَمَنَ اللقاءِ دائماً هو زمنُ المُضارِعُ المَنْقُوصْ. لا يَتَحيّنُ إلّا بنُقْصان، أي

الخوف مِن تَضَرُّمِه لكي يُسْلِمَ الدَعَة الآنيّة إلى غِيابٍ موصولٍ آخر.

أنتِ غَائبة. أُقيمُ إذاً مشهداً لِيُتْمي. أُصبحُ أنا المَرأةَ التي تَنْتَظِر. الطفْل الذي يَخاف. الرَجل الذي يُقيمُ على عَتبةِ غِيابَيْن: مُخَاطَبة الغَائِبِ، وهي صيغةُ الصَلَواتِ والأدعية، وصِفَة الجُنون. أو استدراج فاصل مِنَ المَاضي (وَقْتَ كنتِ هنا) إلى مُخيّلةٍ يَسْتَبدُّ بها الحَنينُ فَتُحيْلُ الحَاضرَ إلى مُضارعٍ مَنْقوصٍ يَحُولُ دونَ تَمامِهِ حَائلٌ. عَتَبةُ الغِيابِ الأوّلِ تجعلُ خِطاب الحِبِّ مُغايَبَة أو، الأدقّ، شعراً، إذا كان الشعرُ تَوأمَ الغِياب. وعتبةُ الغياب الثاني تَنْقُلُكَ إلى هَسْتَرة مُتواصِلة للوقَائِعْ. فَتَكونُ أنتَ الغائب أيضاً. إذ تَصْرُفك غَيْبةُ الآخر، إن لم يُسْعِفْكَ النسيانُ، عن تمامِ حُضورِك. كأنّك الحُضورُ المُعَلَّق. يَغِيبُ الآخرُ فتعزّ عليك الإضافة إليه والتي بها يتعيّنُ أنَاك، يَحْضُر الآخرُ فتغيبُ عن كلِّ شيءٍ سواه. والغَيْبتانِ انفرادٌ، ثمّ انصرافٌ عن شأنِ العُموم، وانكفاءٌ إلى الصِلةِ المُغْلَقَةِ، والحَيِّز الحميم.

أنت غـائبة. إذاً، في انصـرافي إلى تَلَمُّسِ
غِيابِك، هنا، أَنَا غائبٌ أيضاً. وما يَقومُ بين الغائِبَيْنِ
قَـولُ غَيْبَةٍ لا يُسمِّي الأَشيـاءَ لِتصبح مُسميّـات بل
يُنادي عليها بما يُشبهُ الدُعاءَ، لِيَستَقْدِمَها، فهي غائبةٌ
أيضاً. أنتِ غائبة. أنا غائبٌ. والأشياءُ غائبة أيضاً.
إذ يَعْجَزُ العالمُ أن يَكونَ في غِيابِك.

سهوكِ يجعلُنِي هَمَلاً

[أظلُّ غَريبَ الدّارِ في أَرضِ عَامر
ألا كـلّ مهجـور هنـاك غـريب]
(مجنون بني عامر)

[(أما الوقت ـ فعبارة عن حالِك في زمـن الحَالِ لا تَعَلّق له بالماضي والمستقبل]
(إبن عربـي)

VII

مَنْ أحبّه لا يُقيمُ صِلةً بالعَالَم، ولَوْ مُؤَقتة وعَـابرة، إلاّ ويَجْعَلني هَمَـلاً. واللفظُ، لغـةً، هـو السُدَى المَتروك ليـلاً ونهـاراً، لأن الصلَةَ بسـواي (أناساً وأشياءَ وأمكنةً) يَجْعَلُ حُضوريَ مُعلَّقاً حيالَ حُضوراتٍ تَسْتَأثِرُ بانتباهٍ (إصغاءٍ ورؤيةٍ وإدراكٍ) أُريدُهُ كـاملاً لا غَيبة فيه؛ ففي صِلةِ المَحْبُـوبِ بالآخـر، بالشيء الآخر، إهمالٌ يُخلي بيني وبين نفسه. وفي تَخْلّيه عنّي ومنّي تَرْكي. وفي تَخَلّيهِ بالآخر إنصرافٌ إليه وتَفَرُّغٌ له. ومِنَ التَخْليةِ دوماً لَفْظُ ما يُسْتَثنى به، إذ العـالمُ بقَضّه وقَضِيْضِـه يَمثـلُ في انصـرافِ المَحْبوب إليه خَلا وَاحداً هو أنا. كـأنّي في جعله

إيـايَ هَمَلاً خَلّيتُ مَكَـاني فِي مَحبّتِه، أيْ مَضيتُ لِسَبيلي، سَبِيْلِ الغرباءِ الهُمُلِ، ومتُّ.

في كلِّ تَرْكٍ هـذا المعنى للحِداد. فـالمَوتُ كلُّه ليسَ إلاّ هذا: كلُّ مـا رَأيْتُهُ إنمـا رَأيته بُهتَـاناً وعَبَثاً. زَوَالُ كلِّ ما أدْرَكْتُه، لمُجـرّدِ أنَّ المَحْبوبَ يُصْغِي سَهْواً ومِنْ بُعْدٍ، إذ يُلفته تَفْصِيلٌ أو عِبارةٌ أو مَشْهَدٌ لا أكُونُ فيه. وإذ ذاك يُصبِحُ قولُ المَجنونِ (مجنـون بني عامـر) مُسْكَـةَ الحـالِ التي تَجْعَلُني غَريبَ الدارِ بَعْدَ الغِواية. أصيرُ غَويّاً، أي مَخْليّاً، مُنفَرداً، لأنَّ المَحبوبَ أغواني (أَضلّني) ثمَّ جَعَلني غَريباً وَسُدىً مَتروكاً وسَائباً ومُهْمَلاً عند حدِّ الخلاءِ (إذ يَتخـلّى عنّـي ومنّـي)، أي، حسـب اعتـقـاد المتكلّمين، على حدِّ امتدادٍ موهومٍ وبُعدٍ وفراغٍ. خلا عنّي أثناءَ خلوتِه بـي فجَعَلني غريباً لـلفترةِ، وهي أَمَدُ التعليق، وللحَيْرةِ، نَهْباً لألـم الرَيْبِ في أن لا أكون مَحْبُوباً. لذلك أسألُ على الدوامِ، قَطْعـاً لأيْ صَمْتٍ يَرينُ على اللّقاءِ: أتحبُّني؟ فالمركوز في طَبْع المُحبّ ميلٌ جَـارفٌ إلى الإسميّةِ والتَسْميـة، لأنّها الرُقيّةُ الوحيدةُ لِطَردِ غَيْبَته، لاستعادةِ حُضُورهِ

المَتْروكِ. فَالتَرْك، إقْصاءٌ؛ ومِنْ مَعَانِيهِ القُرآنيةِ أيضاً، إبقاءٌ. ومُتَّسعُ الحِداد، حِدادِ المُحبِّ، في الإقامة هَمَلاً بَيْنَ الإقْصاءِ والإبْقاء لثوانٍ تُشبهُ حَالُ المُحبِّ حالَ المَجْنونِ الذي تُخلِّسَ عَقْلُه حِيْنَ يُغايِبُه الهاتفُ: «قضاها لغَيْري وابتَلاني بحبّها...». كَأَنَّ في قِوامِ الصِلَةِ الغَراميةِ تَزامنُ الغِوَاية والتَرْك. حين تكون الغِوايةُ إيهاماً بِفِعْلِ المَقْدور، والتَرْكُ عَدَم فِعْلِ المَقْدور، نِسْياناً أو عمداً. فلا يَجِد المحبّ في الحَيْرةِ إلّا أن يُقيمَ المَشْهَدَ المُعقَّد للحِوارِ الداخلي: كيفَ يُعْقَلُ أنْ يكونَ مَحْبوباً ومَتْروكاً، حاضِراً وغائباً، أَلِفاً وغَريباً، وفي آنٍ معاً في المكانِ المُتعيِّنِ (اللقاء) وفي البُعد الموهوم.

والهَمَلُ، لغةً، هو الماءُ (أليس استعارةً غريبةً للدَمْع) لا مانع له. وعند الفيروز آبادي: هَمَلَت عَينُه (هَمْلاً وهملاناً) فَاضَتْ (بالدموع)، والسَّماءُ دامَ مَطرُها في سُكُون. وإذ يَمْتَنِعُ المَحبوبُ عن مَقْدُورِهِ (في أن يَجْعَلني حَاضِراً على الدَوام) يَجْعَلُني شَغُوفاً بالتَسميةِ وأُمرِّن لُغتي في الأسماءِ التي أُدركها اشتقاقاً وأعثرُ، مُصادفةً، على الجَذرِ

الجامع لأحوالي. «ها أنذا متروكٌ كشيء» (غسان كنفاني)، لأنّ الآخر في صَرْفِ انْتباهِهِ عنّي يُجَرِّدُني مِنْ صِفَتي التّامة كمُحبّ تَتَقوّمُ حالُه بِتنبّه الآخر إليه. ويُجرِّدُ لقاءَنا مِنَ الصَمْت الذي هو بَوحٌ، وكتمان. ويَستَدرِجُ إليه دُخلاء العالم وإشاراته. فتُصبحُ الأسماءُ لَغْواً، والإنصاتُ عُزلةً، وإفراداً لا اشتراكاً في تَسْميةِ مُرادِ المُحبّين ليكونَ المُرادُ، ولو في الوَهْم، حَقّاً وحقيقة. لا يَطْلبُ المُحبّ شيئاً إلاّ هذا، وسؤاله دوماً: «مَاذا أُريدُ؟» فلا يُعْقَلُ أن يريد الغريبُ شيئاً.

ألثم يدَكِ... فَمي الكِناية

[لا يَدْخُلُ الإحْسَاسُ فِيْ مِلْكِ الغَلط.]
(سيوران)

VIII

لـلرقّـةِ والحُـنُـوِّ أَمَاراتٌ هيفي سُـلُوكُ المُحِبّين، كنـاياتٌ مُتَمَـاديةٌ ومُـرْسلة. أمّـا الـرَغْبَـةُ فَقِوَامُها الحَدُّ وتطلّبـه وتَمامُهـا قَضَاءٌ يَليـه التَصَرُّم. ولَيْسَ في حَالِ العَاشِقِ مَا يُعينُه على البَقَاءِ (حَيّاً)، إلاّ كِنَايَة الدّوامِ هذه: «وكانَ هذا بِدءُ الحُبِّ بينهما دَهْراً» (ابن حزم الأندلسي: «طوق الحمامة»). ولا يَقْنَعُ العَاشِقُ بأَقَلِّ مِنَ «الدَهْرِ» زَمَناً لوَلَهٍ يَسْتَبِدُّ به أو شَغَف. لذلك تَراهُ يُقيمُ على تَطَلّبٍ وإرْجَاءٍ. تَطَلّبُ الرِّقةِ، وإرجاءُ الرَّغبَةِ وَدَفْعُها لا يُريدُ لها زَوالاً، بَلْ تَعَاظُماً واتّقاداً خَفِرَيْنِ إلى أَنْ يَحينَ الوَصْلُ. إذ لا يُبتَغىالـوَصـلُ إلا ذُروةً وتمـامـاً للتَـطلّب والتَشـوّقِ والتلهُّفِ إذ طالَ أَمَدُها «دَهراً» أو بعضَ دَهْر.

وأَمارةُ الرقّةِ، لا بل مُنْتَهاها، أَنْ يَمَسَّ المُحِبّ يَدَ المُحِبِّ بِشَفَتَيْه. كَأَنَّه بذلك يُضِيفُ إلى الإرجاءِ (إرجاءِ الرَغْبةِ، سَتْراً وغلاَلةً). فما يَلْثُمه المُحِبُّ في

ظَاهِرِ اليَدِ هُوَ مَا يُبْعِدُ الـرغْبَةَ، مَـا يَحْجبُها، لكي تَدوم الرّقةُ في الكِنايةِ المُتماديةِ للشوقِ (المُلامَسة).
فاللّثْمَةُ على ظاهِرِ اليَدِ ليست بدايةَ الوَصْلِ أَوْ الهَمِّ بِه، بَلْ هي رَفعُ اللّثَامْ! واللّثَامُ، لُغَةً، هُوَ مَا كَـانَ على الفَمِ مِنَ النِقَـابِ أو مَا يُغَـطَّى به الشَفَـة مِنْ ثوب. فَظَاهِـرُ اليَدِ، إذْ يُلثَمُ، يُبـاعِدُ بين اعْتِمَـالِ الرَغْبَةِ وتَمامِها إذ يُدرجُ الوَصْلَ في خَانة الكِنايـةْ. لِذَلك لا تكونُ اللَثْمَةُ إيذاناً بالمُكاشَفـة. بَلْ رُبّمـا كَانَتْ في مَنْزِلةِ الحِجَابْ.

أَمّا ما يُزيلُ السَتْرَ عَـن كِنايةِ الوَصْلِ المُتماديةِ فهي اللّثْمَةُ على بَاطِنِ الكَفِّ (راحةِ اليَد). وكأنَّ في اخْتلافِ الكِنايـة بَيْن ظاهـرِ اليَدِ وبَـاطِنها مـا يُشْبِهُ اختلاَفَ حَقيقةِ الظَّاهِرِ عَنْ حَقيقةَ البَاطِنِ في التَأَوُّل. فَمَسٌّ بَـاطِنِ اليَد بـالشَفَتَيْنِ كَشْفٌ للنِقَـابِ وإزالـةٌ للسَتْر، إذ تُقَامُ الصّـلـةُ، لَثْماً، بَينَ كَنَفَيْنِ مِثَـالّيين للدِفـء. ومـا يَمْكُث على الشَفَتينِ مِنْ أثَرِ الـدِفـءِ والتّحـريقِ وكَنَفِهما رَاحـةُ اليَدِ المُـلامِسـة، يَمْكثُ نَظِيْرُه في رَاحَةِ اليَدْ. وكأنَّ اللّثْمَةَ في امْتِزَاجِ الدِفـءِ والتّحريقِ أمارةٌ على الأَثَرِ الذي يَبْقَى من اتصـالِ

الجَوارحْ. ومَا يَبْقى أشْبه بالجُرْحِ، أشبه بالعَلامةِ التي لا تَراها العَيْنُ قُبُلًا، لكنّها تبقى.

وَصِلَةُ الجَارحةِ بالجُرحِ (والفمُ رَسْمُ الجُرح الأَكْمَل)، واللَّثْمَةِ بالثّلْمِ، حَسْبَ ما يُسمّيهِ إبن دُريد بالإشتقاق الأكبر، مُجْمَلَةٌ في بَعْضِ مَعَاني الجَذْرِ ل. ث. م (أو: ث. ل. م أو م. ث. ل... إلخ). فمعنى التَمْثِيل أحياناً هو التَجْريحِ، أو الثّامل (من ثمل) فهو من السّيُوفِ القديم العَهْد بالصِقال، وأمّا الثّمْلُ إلى فُلاَن فهو المُحِبُّ له... إلخ. فلا يخلو أمرُ الصّلةِ لَثْماً بين المُحبّين مِنْ كِنايةٍ لجُرحٍ، أي ما يَتْرُكُ أثراً (ندبةً) هي، على خفائها، معلمُ ذِكْر وتَذْكار. وإذا كانت القُبْلةُ، هِيَ اللّثْمَةُ، في معناها الأوّل، إلاّ أنّها، ثَانياً، ما تَتّخذُه السَّاحِرةُ لتقبل بهِ وَجْه الإنسان على صَاحِبه أيْ لتَجْعَلَ عِنْدَه قُبولاً له. وما تَفْعَلَهُ السَّاحِرةُ بِوَسَاطة القُبْلَةِ (اللّثمة) هو رَفْعُ اللّثام عَنْ حَقِيقةٍ خَفيةٍ للوجْهِ، عَنْ وَجْه حُسْنٍ فيه، يَجْعَلُه مَقْبولاً عند صَاحبه، رُبّما لأنّ المُحِبّ كَشَفَ عَن وَجْهِ الحُسْنِ فيه بلَثْمِه.

إذ يَلْثُمُ المُحِبُّ وَجْهَ المُحِبّ يَجْعَلُ فيه

عَلامة. والعَلامةُ، ولو خَفيّةً، هِيَ في الوَقْتِ نَفْسِه الجُرْحُ المُفاجِىءُ الذي يُقلقُ ثَباتَ الحَالِ وَيَجْعَلُ مِنْ زَمَنِ الإقلاقِ «دَهَراً».

في روايةٍ لإبن حَزْم الأَندلسي أنَّ الفتى الذي لم يُدرك مودة الفَتَاة، التي أحبّته وظلّ غافلاً عنها، وَعَرَّضَتْ له بالشِعر و «لكنّه لم يَظنّ ذلك فَيمِيْلُ إلى تَفْتِيْشِ الكلاَم بوَهْمِهِ» فَعِيْلَ صَبرُها، وَبَدَرت إليه فقَبّلته في فَمِه، فما كان حَالُه بَعْدَها؟ يَسْتَرسِلُ ابن حَزْم في وَصْفِ حالِ مَنْ أَصابَه الجُرحُ الذي لا شِفاءَ منه:

«فَبُهتَ وَسَقطَ فِيْ يَدِهِ وفُتَّ في عَضُده وُوُجد في كَبده وعَلّته وحَمةٌ، فَمَا هو إلاّ أن غَابَتْ عَن عَيْنِه وَوَقَعَ في شَرَكِ الرّدى، (. . .) وكان هذا بدءُ الحُبِّ بينهما دَهْراً».

مطَهرُ العاشقين

[وماشَيءُ من دواهي الدّنيا يَعْدُلُ الإفْتِراقَ،
وَلَو سَالَتِ الأرواحُ بِهِ فَضْلاً عن الدّموعِ
كَانَ قليلاً]

(إبن حزم الأندلسي)

IX

لا يَكـونُ لقـاءُ بَيْنَ المُحبّين إلاّ جَمعـاً وانْفراداً في وَقْتٍ معاً. ولا يَكونُ إلاّ اسْتِئنَافَ حَالْ. كأَنَّ الوقتَ ـ إذْ لا يَستَقيمُ وَقتٌ إنْ خَلاَ مُتَّسَعُه مِنْ رِفْقَةِ المَحْبوب ـ يَتَّصِلُ بَعْدَ انْقِطَاعِ وَهَنة. فالمَوْعِدُ الغَراميّ (والمَوْعدُ لغةً هُوَ عِدَةٌ وَوَعْد) أَمَارةٌ على أَنْ يُنِيْلَهُ المَحْبُوبُ نَفْسَه التي مَكَثَتْ، فَتْـرةَ الإنْقِطاع، مُوزَّعةً على مَا يُشبهُ مَطْهَرَ العَيْش. ويَكونُ مَطْهراً كلَّ عَيْشٍ خُلْوٍ مِنْ رفقةِ المَحْبوب. أَمّا اللّقاءُ فهو تَمامُ الرّجاءِ في أَنْ يَلْتَمَّ شَمْلُ مَنْ بَاعَدَ الإفْتِراقُ بَيْنَهما. فاللّقاءُ جَمْعٌ إذْ يَنالُ المُحبُّ نَفْسَه بَعَدَ غُرْبَةٍ، وهُوَ جَمْعٌ لأَنَّهُ يُقيمُ للوَقتِ اتّصالاً، ويَسْتأنِفُ الصّلةَ بين المُحبّين.

سـوى أنَّ اللّقاءَ انفـرادُ في غَمْـرةِ اجْتِمَـاعٍ

وَوَسَط جَمْعٍ. ومَردّ انفرادِ المُحبّين أَنَّهُما على اجتماعِ شَمْلِهما يَنْصرفانِ عَنْ كُلِّ مَا عَداهُمَا. ويُقيمانِ الصّلةَ وَسط الجَمْعِ على «إدمان النّظَر» أو بالمُلاقاةِ ولَوْ بِغَيْرِ التّمَامِ، أيْ بالمُمَاسَّة، وبالعَلامَاتِ الأُخْرَى التي تُفْصِحُ دُونما تَسْمِيَةٍ كالبُهتِ والرَّوعةِ البَاديةِ أو حتّى في احْتِسائِهما شَراباً، «شرب فضلةِ ما أبقى المَحبوب في الإناء» (إبن حزم الأندلسي). أمّا إذا انْتحى المُحبان رُكناً لهما صَارَ لِقاؤهما جَمْعاً لانْفِرادينِ وعُزْلَتَين. فما ازداد الدُنوّ يوماً إلاّ ازدادَ معه الوُلُوع. والوَلَعُ حَالُ مَنْ عَلِقَ الآخرَ بشدّة فَلا يَرْضى المُلاقاةَ بينهما إلاّ بالتْمام. والمُلاقاةُ بالتمامِ هي المُداخَلةُ، ومِنْ بَعْضِ مَعَانيها: الإحتضَانُ والالتفافُ والاشْتمالُ والاكْتِناف والمُلابَسَة والمَخالَطة والتَخلُّل. ومُنْتَهى ما تَصْبو إليه الإطمئنانُ إلى دَوام حُضورِ الآخر والتِزَامُه (أي أَنْ يَلْزَمَ حُضُورُه حُضُورَ الآخر)، ولا سبيلَ إلى مِثْلِ دَوامِ هذا التحقُّق إلاّ المُعانَقة.

في عُزلةِ المُحبّين وانْفرادِهما لا حاجةَ بهما للتّضْمِينِ (إدمانُ النَظَرِ والبُهتُ والرّوعةُ البادِيةُ...

إلخ) عَبْرَ علاماتٍ تَستَبعد كُلَّ ما عَداهمـا وتُقْصِيهِ عَنْ كَنَفِ لِقَائِهما. كمـا تَزُولُ الحـاجةُ إلى تـأكيدِ الصّلةِ بالعِبارةِ إذْ تَبْطُلُ الرّغبةُ في الإدْراكِ تَأوّلاً أو تَصوّراً وتَفكُّراً. فيُعانِقُ المُحِبُّ المُحِبَّ أيْ يَجْعَلُ يَديهِ على عُنُقِه ويَضُمُّه إلى نَفْسِهِ. وإذْ يَضمُّه إلى نَفْسِه يَحْضُنه إليه، ويَحْضُنُه عَنِ السّوى، أي يُنَحّيهِ عَن أيِ صِلة بالسّوى ويَسْتَبِدُّ به دُونَه. فالإحتضانُ، وهو المُعانقةُ إذْ تَدُومُ، طَرْدٌ للعَنَاقَةِ (الخَيْبَةِ) والعِناق (الشدّة، الدّاهية) واسْتِرسَالٌ فِيْ طَلَبِ الوَصْل دُونَما شَهْوة. فالحُضْنُ هو الكَنَفُ مِنَ الإنسانِ وإذ يَكْنُفُ المُحِبُّ المُحِبَّ يَصُونُهُ ويَحْفَظه ويَحُوْطه ويَكونُ مِنْه يُمْنةً ويُسرةً، فَيَجْتَمِعُ لديهِ وفي كَنَفِه، كَأنّه يُطيلُ أمَدَ مُخـالَطَة الحَـواسّ ومُلابَسِتِهـا، وتخَلّلِ الرقـةِ في تَبادُلٍ صَامِتٍ للرغبة والدِفـء.

لا شيءَ في صِلَةِ المُحبّين يُـوَلِّـدُ إحْسَـاسـاً بالعُزلةِ مِثْلَ المُعَانَقة. إذ يَسْتَحِيـلُ كلُّ لقـاء إرجاءً للحظة الوَداعِ الوَشيكة. هو افتراقٌ مُرْجَأ، أمَدُهُ أمَدُ اللّقـاءِ، لـذلـك لا يني المُحبُّ، في حِواره غَيـر المَوْصُولِ. يَصِفُ مَا تَكونُ عَليـه حَالُـه في غِيَابِ

المُحِبّ. فاللّقاءُ لَيْسَ سَانِحَةَ أَنْ يقول العاشقُ: هَذِهِ حَالِي عِنْدَما أكونُ برفْقَتِك. بل سَانِحة أَن يَقول: هَذِهِ حَالي عِنْدَما لا أكون بِرفْقَتك. وما يَتّصلُ فِيْ جِوَار العَاشِقِ هُوَ شَجَنُ الفقدان والبَيْنِ والضَنى والسُلوّ فيُقِيمُ اللقاء عَلى ذِكر مَا انْقَضى مِنْ حَالِ الإفتراقِ والمُقبل مِنه، ويُقيمُ رَغْبَتَه على دَوامِ الحِرْمانِ والنأي والألَم. ولا اسْتدْراكَ مُمكناً للوَداعِ الوشيك، إلّا أَنْ يُحاكى مَشْهَدُ الوَدَاعِ مُتواصلاً بالعناق.

ليس من سَويّةِ العَقْلِ ومَنْطِقِه أن يُدفع الغِيابُ بالغِيابِ. فالعُقلاءُ مُدرِكون، والعاشقون سِوَاهم.

تؤنِّسني العَبَرات...

متى يستـريحُ القلبُ، إمّـا مجاورٌ
حـزيـنٌ، وإمّـا نـازحٌ يتـذكّـرُ،
نظـرتُ، كـأنّي من وراءِ زجـاجـةٍ
إلى الدّار، من ماءِ الصّبابةِ أنظـرُ
بعينين، طـوراً يغرقـان من البُكـا
فأعشى، وطوراً يحسـرانِ فأُبْصـرُ
وليس الذي يجري من العين ماؤها
ولكنّـهـا نفس تـذوبُ وتقطـرُ...
(مجنون بني عامر)

X

لا تَخلو حـالُ العـاشِقِ من ألمٍ مُبـرّحٍ وعَـذَابْ. ولا يَخلو المَشْهَدُ الـذي يَبْتكِرُه إشفـاقـاً لحالِه مِنَ البُكاءِ والدّموع. وإذا كانَ للعِشقِ من حَدّ وتعـريفٍ فلا بـدّ أن يقترِنَ بـالإستعـارةِ المـائيّـةِ، الجَـرَيانِ والفَيْضَـةِ والإنْهِـلالْ. ويكفي أن نُحْصِي استعـارات التَدفّقِ لـدُموع المَجنـونِ (مجنـون بني عامر) في بَيْتٍ واحـدٍ من أبياتِـهِ للتثَبّتِ مِنْ طُغيانِ الإستعارةِ المائيـةِ، استعارةِ الجَـرَيان، في مَقُـولِ العاشِقِ وَعبارتِه عن الوَلَـه الذي يَستبـدّ به. يَقـولُ المجنـون: «وإني لأبكي اليـومَ مِنْ حَـذَري غـداً / فِراقَكَ والحَيَّانِ مُجْتَمِعانِ / سِجَـالاً وتَهْتَانـاً وَوَبْلاً

ودِيْمَةً/ وَسَحّاً وَتَسْجَاماً إلى هَمَلانِ». باستثناء حرف الجـر «إلى» يُبْنى قـولُ المجنـون على تَـرادُفِ استعـاراتٍ للتّدفقِ والصَّبّ والفَيْضَـةِ والإنهمار. . . إلخ.

لا شيءَ في جِـوارِ العَاشِقِ إلاّ ويَكـونُ سبباً لذَرْفِ الدْموعِ والبُكاء؛ البكاءُ ألماً وعَذَاباً. ولَيْسَ في استعارةِ الرَجُل (المرأة) في حَالِ العشقِ للبُكاءِ إلاّ قُبولاً باستعادةِ جَسَدِه الطِفْليّ. فالعـاشِقُ مَتروكٌ لمأساةِ مـا يَنالُـه دائماً من الآخـر. وهو في صِلَتِـه بالحبيب لا يكتفي بأن يُحِبّ (لغةً، يَبْرأ من مَرضه) أو أن يُحَبّ (لغةً، يتعب)، أي لا يقف عند حُدودِ المُوافقةِ والمَيْل والمُؤانسةِ والمَودّةِ، بل يَجـوزُ حدَّ التعَبِ أو الإبراء، إلى حدّ الهَوى والخِلّةِ والمحبّة والشَغَفْ والتَتيّم ثمّ الوَله والعِشْق والهُيَام. ويُصبحُ مغرماً. وليسَ في تَفـاسير العَـربِ لِصِفاتِ الشَغَفِ والعِشقِ مَهما تنوّعت إلاّ ما يَجعَلُها مَقـرونةً بـالألم والحِرمان والعَـذَاب الشَّديـد. أُغْرِمَ بـالشيء (على المجهول) أُولِعَ به فَهو مُغرَم. والغرام هـو الوُلـوع والشـرّ الدائم والهَـلاكُ والعذابُ والحبُّ المعـذّبُ للقلب.

وفي سُورةِ الفُرقـان أن عذابهـا كانَ غـراماً.
وقال أبو عبيدة، أي هلاكـاً ولِزامـاً. أمّا الـوَلَه فهـو الحُزْن، أو ذِهابُ العَقلِ حُزنـاً. واسْتَوْلَـهَ الرَجُـلُ اضْـطَرَبَ عَقْلُه. والوَلَـعُ في بعض معانيـه العتَـه، والمَشْغُوفُ المجْنونُ حبّاً والشِغَافُ هُوَ وَجَعُ شِغافِ القلب. أمّا الهُيام فهو كالجُنـونِ من العِشق و. . . أشدّ العَطَشْ، أي الأُوام.

حال العاشق إذاً تجعلُها اللّغةُ حَالَ من يُقيمُ على دَوامٍ الحُزنِ والشَجَنْ. وهو إذْ تَسْتَعْبِرُه (تستدرّ عبراته) كلُّ عَلامةٍ على غِيابِ الحَبيبِ أو حُضـورِه إنما يَروي قِصّته ويَجعَلُ مِنْ عَيْشِـه خَبَراً مُتـواصلاً للألم. فالدّمعُ، إذ يَذرفه العاشقُ غزيراً، لا يكونُ إلّا عِوَضَ اللّفْظِ إذا أعياه اللّفظُ. وقد تكونُ الصلةُ، لُغةً، بَينَ الدّمعِ والعبرةِ هي التي تَجعلُ مِنَ البُكاءِ خَبَراً ووصْفاً. فالعاشِقُ في بُكائِهِ يَقولُ على الدوام: هذا ما أنَاله منك. وهذه حالي. عَبّر الرَجُل جَرَتْ عَبْرتُهُ وحَزِن. وعبّر الرؤيا عَبْراً وعِبَارةً فسّرها. وعبّر الكتابُ تدبّرهُ في نَفْسِه ولَمْ يَرفَعْ صـوتَه بقـراءته. والعَبْرةُ هِيَ العِبارة. وجَمْعُ الأولى عَبَرات والثـانية

عبارات. والعَابِرُ هِيَ المَرأةُ البَاكيةُ الحزينةُ، والعَبْرةُ هي المرّة والإسمُ مِنْ عبّر، وهيَ الـدَمْعةُ قَبْـل أن تَفِيضَ أو تَرَدّد البُكاءِ في الصَدرِ أو الحزن بلا بُكاء. وعَبَّر: أعْرَبَ عمّا في نفسِه، بالعَبَراتِ (الدموع) أو بالعِبَارات. وقد سُمّيت الألفاظ الدّالةُ على المعَاني عِبَارات لأنها تُفَسّر ما في الضّمير الذي هو مَستورٌ. والعَبَرات هِيَ جَوازُ المَكْنونِ من ذَاتِ النَفْسِ إلى عَلَنِ المَشْهد. فالعاشِقُ يَبْكي للتكْنيةِ عَن حالِهِ بغير اللّفظِ حينَ يَغْرُبُ، أي حين يشتدّ وَجَعُه على غِرار المُعتلِّ، والغَرْبُ هـوَ عـرقُ العين يَسقي لا يَنقـطعُ والدّمع ومسيله أو انهلاله من العينِ وهـو الفَيْضة، والغُروبُ في قَصيدة المجنونِ، هي الدّموعُ، وهي المَقُولُ الصّامت لما يَفيضُ حارّاً ومرّاً (أجاجاً) من الجَوفِ، مِنْ أعماقِ الذَاتِ الني تُقيمُ على اضطرابٍ ومَسّ.

يبكي العـاشقُ، وهـو الـوَلهـانُ والمشغـوفُ والمُـولَعُ والمُغـرَم والهَيْمانُ، ليسقي هُيَـامه (أشـدّ العَطَش) مِنَ العَبَرات التي تعبّر عَن حالِه وتروي. فبُكـاءُ العاشِق حكـايةٌ أو هـو رَغبـةٌ في أن يَكـونَ

الشّغَفُ عِبْـرةً واعتباراً يَقيـه الإطّراح والتَـرْكُ. وفي رواية أن الرَقراقَ الذي يَجْتَمِعُ على غِشاءِ العَيْنِ هُوَ صـورةُ الغَائِبِ الـذي يُصبحُ حضـورهُ سائـلاً وألفه جَرَياناً ووصلُه نأياً وانسياباً. وإذ يَقطرُ الـرَقراقُ من العين دمعاً يتلاشى الغَائِب فِيْ تَقَطّرِ صورتِه السائلة.

وفي رِوايةٍ أنّ البُكاءَ تَأنيثٌ. ولا يُغْرَمُ العاشِقُ إلاّ إذا تَأنَّث.

قربُ البعاد....

أغيبُ، فيُفْنِيْ الشوقُ نَفْسِيْ، فَألتَقِي،
فَلا أشتَفِيْ، فالشّوقُ غَيْباً ومَحْضَرا

(ابن عربي، «ترجمان الأشواق»)

XI — أشْتاقُ مَنْ أُحِبُّ وأشْتاقُ إليه. وما تَبْرأُ حَالِي مِنْ تَلهُّفٍ وافْتِقَادْ. فالشّوقُ أمارةُ الحُبُّ في الغَيْبة والحُضور لأنّه حَالُ الرَغْبَةِ واسمُها الآخر.

يَبْرَحُ مَنْ أُحبُّ جِواريْ، أي يَصِيرُ منّي في البَرَاحِ، في المُتّسَعِ مِنَ الأرضِ والخَلاءِ، أو أَخَاله كذلك إذْ يَرْحَل، فيَشُوقُني وألتَهِفُ، كَمِثْلِ النّارِ إذ التَهَبَتْ، وتَسْتَبدُّ بي التَباريحْ. تَبَاريحُ الشّوق. ومِنْ مَعْنى الشّوقِ الإفْتِقَادْ. أو نِزَاعُ النَفسِ إلى مفْتَقَد. أمَّا الإفْتِقَادُ فَمَثَلُه مَثَلُ الرّغْبَةِ. إذا كانت الرّغبةُ، بالحدِّ الأغُسْطِيني، «اشتهاءَ ما هو غَائِب»، فإنَّ افتقاديَ الشّيء، لُغةً، هُوَ طَلَبي إيّاه عِندَ الغَيْبَةِ، عِنْدَ غَيْبَتِه. ويَزدَادُ تَطَلّبي إيّاه إلحاحاً كلّما نَأتْ بِهِ الغَيْبَة عَنّي.

أشْتـاقُ مَنْ أُحِبُّ، تَشـوّقـاً واشْتيـاقـاً وتلهُّفـاً وافتقاداً، ويَقينِـي أن لقاءَه لَنْ يُرضِيَ فِيَّ إلاّ الشّوقَ مُسْتَبِدّاً بـي نِزَاعاً إلى لقياه. أمّا اشتياقي إليه فلا يَستكينُ بـاللّقَـاءِ، بَـلْ يـزيـد التِهَـاف القَلْب، أي تَحـرّقه. إذ يَغيبُ مَنْ أحبّ يُبَـرّحُني الشّـوقُ إليـه ويَنَـالُني مِنه التَبْـريحُ والسُقَـام المُتَولّـد عَنْ «إدْمانِ الفِكْرِ» (إبن حزم). وهو إذْ يَحْضُر لا يَحْضُر على تَمام تَطَلُّبـي إيّاه ورَغْبتي فيه، لأنَّ في تَمامِهما زوالاً لمـا يَتَقوّم بـه التَطَلّبُ والـرَغْبَة. أي زَوَالُ شُـروطِ المَحبّـةِ وعَلامَـاتِها. لِـذلك يَشُـوقُني عَلى الدوام، وقُبَيْلَ التَلاقي، ولاَ يَسْتَكِينُ اشْتِيَاقي أوانَ اللّقاءِ ولَوْ كَانَ اللّقاءُ وَصْلاً ومُداخَلةً.

أَلقاهُ مَلهوفاً (حزيناً) لاهِفَ القَلْبِ (مُحْتَرقه)، أسْيـانَ غيرَ صَـابِرٍ ومَـظلوماً، ويَلقَـاني عَلى صُورةِ حـالـه. فَمِنَ الشَّهـوةِ (وهيَ حَـرَكَـةُ النَفْسِ طَلَباً للمُلائم) مَعْنَى المُشَاهاةِ، أيِ المُشَابَهة، وما يَسْري في رغَباتِ المُحبّين ويَعْتَمِلُ أَشْبه بالتقـاءِ الشّبيْهَين اللّذين لا يَكْتَمِلُ نُقْصانُ حَالِهما إلاّ تَدْريجاً عَبْر إضافَةِ النقْصَانِ إلى النُقصان.

في لِقائي مَنْ أحبّ أوّل مَا يَبْدرُ مِنيّ تَبْديدُ الغَيْبةِ بأَنْ أشْتَمِلَ على حُضُوره كَامِلاً بالنّظَر. وبالإفْصاح عَنْ مِقْدارِ شَوْقي. ثُمّ المُخَاطبَةُ التي تُهْمَسُ في العِنَاقِ المُتَعَجّل. وكأَنَّ العِناق استدراكٌ لِغَيْبة المَحبوب فِي كلّ سَعيٍ قَدْ يَسْتَردّه إلى حَالةِ الغيـاب. وتُصْبحُ المَسَافَةُ مَاثلة ولَو كَانَتْ «قابَ قوسين أو أدنى...» (على قولة المتصوفة). ذلك أنَّ الفَتْرَةَ (ومَعناها الحرفي: زَمنُ الغيبةِ، المؤقت) التي تَسْبِق اللّقاءَ، تُدرجُ الزَمَنَ، مَهْما كَانَ بطيءَ التَصَرُّمِ، فِي حِسابِ الإنقضاءِ الذي يُقرّبُ نَوالَ الوَصْلِ، أمّا اللّقاءُ فَيُدرِجُ زَمَنَ الوَصْلَ، الذي يُريدُه العاشق دَواماً، فِي حِسَابِ الحَيّز والمَكَان. فالمَسَافةُ مَهمـا قَصُـرَتْ بين المُحبّينَ هيَ اتّسـاعٌ وبَرَاحٌ. والقـرْبُ لَيْسَ القُرب المُرتَجى بَلْ حَسْرةَ لأنّ في حَالِ القُربِ ثَمَّةَ مَا هُوَ أقْرَبْ. واللّمْسَةُ الأعمق، إذ تُـوقِظُ الرغْبَـة إنّما تُـوقظُ اشتهـاءَ الغَـائِبِ وتُشيـعُ الإحساسَ بالنُقصانْ. والعِناقُ لا يكفي لأنّه احْتِضانٌ لا مُداخَلة، واللّثْمةُ والتّطَاعُمِ والاحتضان، وكلّهـا كنـاياتُ لامتِـزاجِ ذاتين في جَسَـدين. فـلا يـزول

اشتياقُ مَنْ يُحِبّ، لأنّ العاشِقين اثنان لا واحدٌ. لأنّ المُحِبَّ لَيْسَ المَحْبـوب. ولأنّ المَحبُـوبَ لَـيْسَ المُحبَّ. ولا فَناءَ يَمزجُ الجَسَـدَيْنِ على تَمام ِ مَـا تصبو إليه رَغْبَتُهما. فَيَرقى الإشتياقُ في وَصْلِ اللّقاءِ حَدّاً لا تَصُحّ معه إلاّ الغَيْبة. غَيْبَةُ المُحبِّ عَنْ ذاتِهِ إضغـاءً لذاتِ المَحْبـوبِ. وغَيْبَتُه عَنْ جَسَـدِه سَعياً لامتلاكِ جَسَدِ المَحْبُوبِ وَلو بـالوَهْم والتَمَنّي: لـو أكـونُ جَسَد مَنْ أحبّ! فـأجـاورُ رَغْبَتـه، ويُجـاورُ رَغْبتي. وأحمِلُ ذاتَه في كَنَفي.

من أحكـام ِ اللّغـة قَـولُنـا: شَـاقني الشّيءُ، يَشوقُني، فَهْوَ شَائقٌ وأنا مَشُوقٌ. فالعاشِقُ كائن مِنَ الأشواقِ لا تَعْثر، الدَهْرَ، على تُـرجُمَانِهـا. ولَيْسَ غـريبـاً أن يَكـونَ الشّـوْقُ في لسـان العـرب، هُمُ العُشّاق.

لو أكون من احبّ...

[وما زلتُ إيّاها وإيّايَ لم تزل،
ولا فرقَ، بل ذاتي لذاتي أحبَّتِ]
(ابن الفارض)

[(...) فالمحبُّ الصادق من انتقل إلى صفة المحبوب، لا من أنزل المحبوب إلى صفته]

(ابن عربي)

XII

أَلْفِتْنَـةُ هِيَ مَا يَسْتَـدعِي رَغْبَتِي، أَنَـا العَاشِق، فِي اكْتِنَاهِ الفَرِيْد، الذي لا يُضَاهى، فِي جَسَدِ مَنْ أُحِبّ. والفَاتِنُ مَا تَمْثُلُ لَدَيْهِ رغبتي وُلُوْعاً لا يُسمّى ولا يُشارُ إليهِ بِعَيْنِه لأنّ الإشارةَ تَقْصُرُ عَنْهُ. إذْ «الحَرْفُ يَعْجِزُ أَنْ يُخْبِـرَ عَنْ نَفْسِه فَكَيْفَ يُخْبِـر عَنّي» (النِفّري). والفِتْنَةُ، لُغةً، هِيَ الخِبْرةُ والإبْتِلاءُ والضّـلالُ والكفْـرُ والإثْمُ والفَضِيحَـةُ والعَـذابُ والمَرَضْ. وَمَنْ افْتِتِنَ فِي دِينِهِ (على المَجْهول) مَالَ عنه. وفَتَنَ فُلاناً، أَضلّهُ. وفَتَنَ الشَيْءَ فَتْناً أَحْرَقَه. لِذلك ما يُثيرُ رَغْبتي في جَسَدِ مَنْ أُحِبّ لا يُسمّى، وإذْ أُجاوزُ «الحَرْفَ الذي يَعْجز أَنْ يُخبر»، أَقولُ إنّه

فَاتِن. أيْ أنه في تَعَذُّر التَّسْمِيَةِ والتَّعْيينِ والإشارةِ الوَاضِحَةِ إلَيهِ يَصْنَعُ رَغْبتي ووُجْهَةَ نُزوعِها والمَيْلْ. وعِنْدَئِذ نُصبحُ الرَّغبةُ لا وَصفَ حَالٍ واحدة، بَل اثنتين أو ثَلاثْ. أنْ أرْغَبَ فِي جَسَدِ الحَبيبِ، أَيْ أنْ أُريدَه بِالحِرْصِ عَليه وأُحِبَّه. وأنْ أرْغَبَ بِهِ عَن غَيْره، أي أُفَضّلَه عَليه. وأَنْ أرغَبَ إليه ابْتِهالاً وضَرَاعةً ومَسْأَلةً. وفي الوَقْتِ عَينِه أَرْغَبُ، رَغبةً أخيرةً، عمّا تَبَقّى زَاهِداً في مَا سواه تَاركاً إياه.

رغبتي إذاً تَصنعُها الفِتْنةُ وافْتِتَاني (على المجهول) بِمَا لا يُسمَّى أو يُشارُ إليه بالحرفِ واللّفظِ، يَجعلُني على ضَلالٍ وابتلاءٍ واختلاط، فلا أعرفُ لها قَضَاءً. لذلك أَعْمَدُ، فِيّ الحَيْرةِ التي استبدّت بأحوالي، أَنَا العاشقُ المَشُوق، أتَلَمّسُ مِنْ جَسَدِ مَن أحِبّ ما يَقِيني، في مَقَام حَيرتي، دَوامَ التشوّقِ إلى مَا أجهَلُه. والتلمُّسُ تفتيشٌ وَنَبْشٌ وَرَفْعُ النّقابِ عَمّا يَستَتِرُ (أو يُجَنّ عَليه بِرِدَاء أو حُلّة أو ظَاهِر حَال)، فابتداءُ رغبتي في أنْ أكونَ جَسَد مَنْ أُحبّ، (وَجَسَدَ، لُغَةً، لَصَق) أَنْ أَتَحَرّى باللّمس مَا يَقْرُنُ حَالي بِحَالِه قَرْناً، أي ما يَشُدُّني بِهِ وَيَصِلُني

إليه. وكَأَنّ مَا يَعْتَملُ فِيَّ ويَزدَادُ التِهَافاً ليسَ مِنّي بَلْ مِنْهُ هوَ وفي الثنايا التي لا تَعْرضُ للعينِ بل تَسْتَدْعي جَمْعَ الحَوَاسِ فِي حَرَكةٍ واحدة. أيْ أَنَّ يُحَلّ جِسمي (يُذَاب) ويُحلّ جِسمُ مَنْ أُحب (يُسْكَن). وعِنْدَما يَحَالّ الجِسْمُ الجِسْمَ تُسْتَبْعَدُ الإشارةُ إلى مَا يَدلّ على العَلاَقَةِ بَيْنهما، فَالحَليلُ هو القَرين والزّوج، ولا تُضافُ تَاءُ المَنْطقيين على الإسم (فتغدو تحليلاً) إلا لحَذْفِ مَا يَتوسّطُ طَرَفَيْ القَضِيّة. ورَغْبةُ العَاشق إذ تصبو إلى رَفْع الحِلّة (الثوبِ السّاتِر لِجميع البَدَن) إنّما تؤكّدُ الإرادة والشّوقَ (بالمعني الصوفي) أي تؤكّد الفَرْقَ بِدَايةً وتَسْتَبْعد الحلول. وإذا كان أَقْصَى تَشوّقِ العَبْدِ للمَعْبُودِ، في أحوالِ الصوفية، يُفْضِي إلى الفَنَاءِ، فالعاشِقُ لا يُفني رَغْبَته بَلْ يَسْتَزيدُ التهَافَها بالمِزَاجِ مِنَ البَدَن وما رُكِّب عَليه مِنْ طَبائع. فالرغباتُ أَمْزِجَةُ انْتِقاءٍ للفاتن في جَسَدِ الحَبيب. وجَسَدُ الحَبيب كلُّه فَاتِن، أيْ يَقْصُر عنه الوَصْفُ وتَقْصُرُ التَسْمية.

لشِدَّة مَا أَرْغَبُ فِي مَنْ أُحبّ، ولشِدَّة مَا أَرْغَبُ إليه، أُحبُّه ضَرَاعةً وابتهالاً لا أَنْ أُمنَح جَسَدَهُ

بَل أَنْ أَكُونَ جَسَدَه، أَتَعَرّفه، وَيكونُ مِزاجاً لي.
والمِزاجُ الذي يَصبو إليهِ العَاشِقْ ليسَ نَظِير امتزاجِ أَهْلِ الجَفْر إذْ تُجْمَعُ حروفُ اسم المَطْلوب مَعَ حُروف إسم الطالِب، مَجازاً، بل هُوَ نَظِير الإتّحادِ فِي قِيامِ ذَاتٍ مَقَامَ أخرى.

أَشدُّ ما في رَغبة العاشِقِ انتقالُه إلى صِفَةِ المحبوب. وأكثر ما يَفي التِهَافَ الحَوَاس لَديه أَنْ تَنْتَقِلَ الحَاسَّةُ إلى صِفَةِ مَحْسُوْسِها. وإذ ذاك لا تَكونُ الغَايةُ إدراكاً لِعَرضٍ مِنْه، فَشَرْطُ الإدراكِ وَسَائِطُ إعتِلالٍ تُفْضِي إليه، وإعمالٌ للذّهْنِ فِي صُورَةٍ مُجرَّدة. وإذا كان اللّمسُ في تَلَمّسِه مَبْعَثَ الرَغْبَةِ ومَكْمَنها مِنْ جَسَدِ مَنْ أُحبُّ، تَكُفُّ اليَدُ، أو راحةُ اليَدِ، المُلامِسة عَن أَنْ تَكونَ يداً. فَمَوضِعُ الإستِدَارةِ أو الإكْتِنَازِ أَوْ التَثَنّي مِنَ الجَسَدِ الشَائِقِ يُحيلُ مُدرَكَ الحَاسّةِ إلى صِفَة له. وبذلك تَكونُ اللّمسةُ دَافئَةً أَوْ مَلْسَاءَ أَوْ مُتَعرّقَةً اوْ لَزِجَةً أَوْ عَمِيقَةً رَاعِفَةً أوْ مُرتَعِشَةً أَوْ حَائِرة. كذلك الشَمّ إذ يُصُيبُه عُطْرُ مَا يُزكي بِهِ أطرافَه. والذّوقُ والسَّمْعُ والبَاصِرة. لا تَرى العَيْنُ إلاّ فِتْنةً مِنْه فهيَ إلى دَوام افتِتَانٍ

ومَيْلٍ يُشْبِهُ الضّلالَ لشدّةِ ما يَطْغَى وَيَسْتَبِدّ.

يَجْعَلُني مَنْ أُحبُّ على صُورةِ صِفاتِه فَلا أَجِدُني إلاّ بِمَا يُمْلِيهِ عليَّ حُضورُه. ولا أُنْزِلُه إلى صِفَتي لأَنّنِي فَاقِدٌ لَها، أو أتشَوّق فُقْدَانَها فأُجَاوِزُ حدَّ التَفْرِقَةِ إلى جَمْعٍ لا تَعُودُ فِي صِفَتِي هِيَ الرَسْمُ والتّعريفْ. فَكُلُّ الصِفاتِ تَعودُ إليهِ ولا أسْتَبْقي مِنْها إلّا المَحوَ وسَلبَ الإرادة. أتَنَفّسُ هَوَائه لأَبْقَى. أُلامِسُ جَسَدَه بالرغبةِ التي يُوقِظُها جَسَدهُ فِيَّ، فهي لَيستْ مِنّي بَل مِنه وفِيهِ وبِهِ وإليه، وهِيَ رَغْبَةٌ عَنْ ذَاتِ نَفْسِي إذْ يَشُوقُها التَأَنُّثُ بالمُشَاكَلة. فالشَكْلُ هُوَ الشَبَهُ والمِثْلُ والنَظِير، وَما يَشوقُنِي في مَنْ أُحبّ شَكْلُ مَا يُفرّقني عنه ويَجعَلُني الآخَر والسِوى والمُخالِفَ والغَرِيب. ورغبتي أن تَجْعَلَني الرَغبةُ أدنَى منه وإليه. فتؤنِّثُ المُلامَسةُ يَدي. وَيرقُّ بالإصغاءِ صَوتي، ويُزيلُ عِطْرُه رَوائحَ اشتهائي، ويُخالِطُ رِضَابُه المُرَّ فِي قُبلاتي. ولَيْسَ احتضاني مَن أُحبُّ وسُكوني إليه، إلا تَورية اشتمالِه نُقصاني بِمَا يُعوِزُني: لماذا أكون دائماً ما أكونُ عَليه، ولا أكونُ من أحبّ فلا نَفْتَرق الدّهْرَ؟

أيُّنا انا... أيُّنا انتِ؟

زَهـا جِسمُ ليلى في الثياب تَنَعُّمـاً
فيـا ليتني لو كنتُ بعضَ بُـرودِها
(مجنون بني عامر)

[(وحُكِيَ) أنَّ مجنـون ليلى قيـلَ لـه مـا اسمك قالَ ليلى وقيل له يوماً أَوَمـاتَتْ قال ليلى في قلبي لم تمت أنا ليلى (...)]
(ابو حامد الغزالي)
(مكاشفة القلوب)

XIII

في كلِّ ما يَأْتِيه العَـاشِقُ انكارٌ وتَنَكّـرٌ. إنْكارٌ للذاتِ وتنكرٌ لها. وليسَ في الإنكارِ والتنكّر هَذين أيّ اسْتِبْعادٍ للأَثَرة أو المَيْل إلى غيْريّة مُسَالمَةَ. بَـلْ دَأْبُـهُ ومُرتَجاه أَنْ يُخْليَ الفَـاصِـلَ بَين ذَاتين وجَسَدَيْن مِنْ كلِّ تَفْرِقَةٍ أو مُغَايَرة. ولِسَانُ حَالِه عَلى دَوام التَمنّي: أُريدُ أَنْ أكونَ مَنْ أُحِبّ، وأُرِيدُهُ أَنْ يَكونَ أنا. وإذَا أَعْيَتْهُ الحِيْلَةُ في اتّحادٍ ليسَ تَمَامُه إلاّ الفنـاء، يَعْمَدُ إلى التَنَكّـر في إبدالِ مَـظهَرِهِ، أي يَعْمَـدُ إلى المُـلابَسـة بِـالمَعْنيين: اللِّبس (مصـدر قولكَ: لَبِسْتُ الثوبَ) واللَّبْس مَصدر قـولك لَبَسْتُ عَليه الأمرَ، أي خلَطْت). ومُبتَغى المُلابَسة أنْ يَرى

المَحْبوبُ أنَّ المُحبَّ لَبِيسُه، أي نَظِيْرُه ومِثْلُه.

وسَبيلُ العَاشِق إلى ذلك، التَأنُّثُ والمُوافَقَة، والزيُّ، أي الهَيْئة. فلا يَحْرصُ على شَيءٍ حِرْصَه على أن تَتَبَدّى صورتُه أشْبَه ما تكونُ بصورةِ الحَبيب. ويَجعلُ نَفْسَهُ جَميلاً ليُشْبِه مَنْ يُحبّ. إذ لا تُخالِطُ صورةَ الحبيبِ شُبْهةُ دَمامةٍ أو نَقيصةٌ أو تشوّه. فالفِتْنَةُ تجعلُ منه الأَكْمَل طَلْعةً وطَالعاً. وفي صَبْوةِ العاشقِ لأنْ يُشْبِه صورتَه نُزوعٌ لاطّراحِ الريبةِ في أن لا يكونَ جمِيلاً. كلُّ عاشِقٍ جَميل لأنّ كُلّ معشوقٍ جميل. وإذا كان جَمالُ التشوُّقِ مكنوناً فلأنّه يَكتنُّ مِنْ وَراء حِجاب. من وَرَاءِ اللِّباس الذي هو غِشاء. وما تُزالُ غِشَاوةُ السَترِ، بالإباحةِ (أي سُفور المكنون)، بل بارتِضَاءِ العاشقِ نِقاباً يُشبهُ كنَّةَ المَعشوق، علَّ الشبه في حالٍ ما يَحجُبُ يُسفِرُ عن شبهٍ في حالِ المَكنون.

يحيا العَاشِقُ إذاً في طَلَبهِ المُحاكاة. إذ لا يُقامُ وَصْلٌ على حَالٍ مِنَ المُغايرةِ والبَيْنِ والإفْتراقْ. أَصْلُ المُحاكاةِ في ابْتِغاءِ الشَبَهِ تَجاوزُ الرَغَبات. لكنّها أيضاً في تغيُّر المَظْهَر والشَكْلِ والهَيئة.

فالعَاشِقُ (إذا كان رجلاً) يرَى أو يُريد أن يَرى في المَعْشوقِ (إذا كانت امرأة) مظهرَ المرأةِ، التي يَوَدُّ أنْ يكونَها في تَنَكُّره لذاتِ نَفْسِه. والعَاشقةُ (إذا كانت امرأة) تُريد أنْ تَرى في المَعْشوقِ (إذا كان رجلاً) مَظْهَرَ الرَجُلِ الذي تَوَدّ أنْ تكونَه مِنْ وَراء النّقابِ الذي تَكْتَنُّ به. وبذلكَ يَتَنَكّرُ العَاشِقان لِمَظْهريهما ويَتّخذُ واحدُهما (أو يَسْعى ما استطاع) الهيئةَ التي تُجاورُ رغبةَ الآخر ومُبْتَغاه. وكأنّهما في ذلك يَجعلان مِنَ الزيّ واللّباسِ لعبةً للمُلابَسةِ التي هي اختلاطُ الصّفاتِ، فتُحيلُ الجَسَدين في لِقائهما إلى استعارة أصلها الخُنْثى، وهو المخلوق الخُرافي الذي جَعَلتْه المِيثولوجيا اليونانية صورةَ الإنسان في بدء الخَليقة. وإذ فَصَلَ زيوس جَسَدَ الخُنثى إلى اثنين، ذكراً وأنثى، كان عَيشُ البشر عقاباً متواصلاً في سعي كلِّ شَطْرٍ منهما للعثور على تمامه في الآخر والاتّحادِ به.

لا يأبه العاشق لخُرافةِ اليونانيين، إلاّ أنّه يَرتَضي مُحاكاةَ الصورةِ التي يَرتضيها له المحبوب. يَمْتَدِحُ المحبُّ رقّةَ مَنْ يُحِبّ، فيَرى المَحْبوبُ أنَّ

الرِّقَّةَ كَسبٌ له ممّن أحب. فالصفَةُ لَيْسَتْ مِنه، بل مِنْ مِقْدارِ المَحبّةِ، أي أنَّها مُؤنثةَ وكلُّ ما تأنّث له صِلةٌ بالآخرَ (وهو، هنا، الرجل) الذي يَطرَحُ عَنْه سِمَةَ «الرّجولة» ارتضاءً للشَبَهِ بِمَنْ يحبّ. يَطيبُ للمحبوبِ عِطرُ المُحبِّ، أو يَروقُه الثَوبُ الذي يَرتديه أو يَأْنَس لعبارة مِنه، فلا يَني يَمْثُلُ المحبُّ لِذاته في طِيبِ العِطْرِ ورَائقِ الثَّوبِ وأُنسِ العِبارة التي نَالَتْ من المحبوب التفَاتاً.

وأُمنيةُ العاشِقِ أنْ يَكونَ «أنـاهُ» عَلى صورةِ ما يَتوقُ إليه الآخرُ توقاً في التفَاصيلِ التي لا كلَّ لها. يَجِدُهُ في العِنَاقِ امرأةً وفِي البكاءِ طفلاً وفِي الأسى أمّاً وفي الغِبطةِ صُحبةَ ما لا يَبذُلُه الصَحْبُ لأنّ الصَحبَ أغيار، والمَحبوبُ هو الأَنا الذي أرتضيه بمقدار ما يَرتَضيني «أناه»، هُوَ «لِباس لي» وأنا «لِباسٌ له»، إنْ لابَسْتُه عَرفتُ باطِنَه وسَكَنْتُ إليه، وإنّ لابَسَنِي عَرفَ باطِني وسَكَن إليَّ، فاجتمعنا في اللّبس، فأيّنا المحبُّ وأيُّنا المَحبوب؟

سرُّ الأسارير

[ومـن بـعض صِفـاتِ الحُـبّ الكِتْمَـانِ
باللّسان (...) ويَـأبى السرُّ الدفينَ، ونارُ
الكَلَف المتأججة في الضلوع، إلا ظهوراً
في الحَرَكاتِ والعين (...)]

(ابن حزم الأندلسي)

كـلانـا مظهـرٌ للنـاس بغضـاً
وكـلٌّ عنـد صـاحبـه مَكيـنُ
تبلّـغنـا العيـونُ بمـا أَردنـا
وفـي القلبين ثَـمَّ هـوىً دفينُ

(من أخبـار مجنـون بني عـامـر، لأبـي الفـرج الأصبهاني)

XIV

ما يجمع بينَ العاشِقَين ويوطّدُ حَالَهمـا على دَوامِ الأُلفِ والشّوق، سرٌّ لا يُفشى ولا يُذاع. والسـرّ بينهما يجعـل مِنْ واحدهمـا خِلًّا لـلآخـر ومعرفةً. فالمحبّ وحده يعرف ما لا يعرفُه آخرون، مهمـا انتسبـوا إليـه أو انتسب إليهم، مِنْ خِصـالِ المحبوبِ ومزاياه، وحقيقته، حقيقةِ ما هو عليه لا تتقَوّم إلاّ بهذه المعرفة؛ وفي امتـلاكِ المَعْرفـةِ هذه إنشـاءٌ لاستيهام الحقيقـةِ التي لا تكونُ حقيقَـةً إلاّ استيهاماً وتَوهّماً. ومَصْدرُ الخُصوصِ في حقيقةِ مثل

هذه ما يَجْهلُه الآخرون بشأني، أنا المُحبّ، وبشَأن المحبوب. فما يَجْمعُ بيننا دون الآخرين إدراكُ كلٍّ منّا لحال العشق. لذلك أعرف من أحبّ، ومن أحبُّ يَعْرفُني، معرفَةً تتقوّمُ بالأصلِ من كلٍّ شيء، ولبِّه وجَوْفه ومَكْنونِه والعلم به، وهذه كلُّهَا، لغَةً، من مَعَاني السِرّ.

إلا أَنَّ مُفَارقَة السرّ أنّ تصاريفه في حُكم الأضداد. إذْ أَسَرَّ الشيءَ كَتَمَهُ وأَظْهَرَه. ويقول أبو عبيدة: أَسْرَرْتُ الشيءَ أُخفيتُه، وأَسْرَرْتُه أَعْلَنْتُه، والحديثَ أفضيتُ به. أمّا المودة فإسرارها أو الإسرار بها مسارّة وسِراراً، فهي المُناجاةُ بين متخاطِبَيْنِ على انفرادٍ وتفرّد. والسرُّ هو الوصلُ إذْ يُكْتَم. وهو الوصلُ الْحَرَامُ لأنَّ الحَلالَ منه يُفصَلُ، على ما أورده الترمذي، بالدفِّ والصوتِ، أي الإعلان والمُكَاشفة والجهرة والإجهار بصخبِ الإحتفال.

سرُّ العَاشِقَيْن إذ يُقيمُ على حُكمِ الأَضْدادِ لغةً، يجعلُ اللّقاءَ كَنَفاً لكُتْمَانٍ وتواطوءٍ ويستحيلُ ما يُجْهَرُ «بالدفّ والصوت» (الزفّة كما تقول العامة) إلى

حالِ تَكتُمّ أو يُسَرُّ بِهَا همساً ولمساً. فالعـاشقُ له قُـدْرتان: إحـالـةُ البَثِّ إلى كُتمـانٍ، والإفـراطُ في تَضْمينِ المَظْهَرِ والحَرَكةِ والسِيْمَاء مِن العَبْرةِ مَا فَاضَ بها معنىً ودَلالةً. فإذَا كَان السرُّ مَا يُكْتَمُ فمثيلَهُ هو خطُّ بَـطْنِ الكفِّ (العِـرَافَـة) والـوَجْـهِ والجَبْهـةِ (الفِـرَاسَة)، وإنْ جُمِعَتْ على أَسْـرَارٍ فالشّـائعُ في استعمالها جَمْعُ الجَمْعِ على أَسَارير، أي ما يُجْتَهَر (يُـرى) مِنَ المَكْنُـونـاتِ والـدفـائنِ، بغيـر العِبَـارة الصّريحةِ، جـليّاً على خطوطِ الـوجه وفي التمـاع العَين أو الإبتسام أو حركةِ الحاجبين والجَفنين. وما تبثُّه اليَدُ لا اللسان، ومَا يَجْهَر به احمرارُ الوَجْنَتين أو تورّدهما أو امتقاعهما أو شحوبهما، وما تُفصِحُ عنه النّبْرةُ لا اللفظُ من مؤانسة أو جـفَاء أو حُنُوّ.

لا تدومُ حالُ العِشْقِ إلاّ بـدوامِ السرّ الـذي يَكتنفُها أو تُكْتَنَفُ عليه. فمِنْ جَذْر السَرَر، السّرور، والسّرّ والسَّراء والمَسرّة وكلها، على ما يذهَب إليه السيرافِي، معنىً للفَرَح. وما يُسرّه العاشقان كُتماناً هو الغِبطةُ التي تَجمعُ شملهما على انفراد وفي خِلّة من الآخرين. إذ يجعلُ السرُّ اتصالهما على غرار ما

يُكتمُ في الحياةِ الحميمةِ ولا يُذاعُ لأنّه التمامُ والمبتغى، وكمالُ الصَبْوةِ إلى المُخالطة. وما يُكْتَمُ هو قوامُ الرغبة التي لا تُقالُ ولا تتسعُ لها العِبارة مهما حَذقت. فالسرّ هو الذي يُقيمُ لِلعاشقين كنفاً لاعتزالِ ما سواه والإنصراف عما يُحيلُ الذاتَ إلى صفةٍ في العموم. والمُعلنُ هو اشتراكُ في فِعْلةٍ أو صِفةٍ أو مَزيَّةٍ، يُقرّ بها الجَمْعُ ويتّصفُ بها. أمّا (المُحِبّ) فلا قِوَام له كعاشقٍ إلّا إذا كان فريداً، على غرار المحبوب، ولا قوام لعشقِهِ الآخر إلا إذا كان يعرفُ من شأنِ الآخر ما يُجْهلُ على الإطلاق. أي قوامُه أن يكون المحبُّ سرَّ المحبوب، عالماً به عِلْمَ من يتكشّف له المَكْنون، ليس لِبراعةٍ مِنه وحَذَقٍ وحُسنِ دِرَاية، بل لأنّ مِنْ طَبْعِ المكنون أن يُجْهرَ لأحدٍ مخصوصٍ هو المُحبّ دون سائرَ البشرَ.

والسرّ بينَ العاشِقِين آصِرةٌ لا تُضاهى. فهو ما لا يُعلمُ من حالِهما، أي جانب الخفاء الذي يُضاعفُ لَبْسَهُ ما يَكتنُفُه من استيهام الشهوةِ في مواضِعها؛ فالشهوةُ للجسم العاشق على غرار غبطةِ النَفْس، مكنونُ المشتهى من الآخر ولا يُنالُ إلا خِلسةً وسِرَاراً وتَسْرِيةً لكي لا يُسفَّه في حُكمِ العُموم.

نصُّ الغياب

[... وأعني بالخواطر ما يَحْصلُ في القلب من الأفكـار والأذكار. إمّا على سبيـل التجدّد وإما على سبيل التذكـار. فإنهـا تُسمَّى خواطر من حيث أنها تخطرُ بعد أن كان القلبُ غافلاً عنها... فمبدأ الأفعال الخواطرُ ثمَّ الخواطرُ تحرِّك الرغبةَ.]

(أبو حامد الغزالي)

XV

في انصــرافـي إلى مَنْ أُحبّ يُـملّيـني حُضورَه وسُكنايَ إليه، أرتضي منه أُمارةَ المودّة على ظَـاهـر عبـارتِهـا فَحَسْب؛ ومنْ تَصــاريفِ العبـارةِ الإغضــاء والإيمـاءُ والبَسمــةُ واللمسـةُ والإســرار والمُداعبة والتعريض بالقول إلماحاً، والموافَقةُ على سبيـل البَثّ، والمُخـالفـةُ والتعـديـدُ على سبيـلِ العتابِ. وإذ ذاك لا تُشكِلُ الأمارةُ أو تُلابِسُ يقيني مَظَنّةٌ. فالحضورُ، حضورُ مَنْ أُحبّ طُغيانٌ وإمْـلاءٌ (يُمَلّيني إيّاه: إذا مَتّعني بِهِ وأعاشَني مَعَه مَلاوَةً، أو رَدْحـاً يَـطولُ مِن الـزمنِ)، يمنعنـان عَنّي الخَـطْرةَ والخوفَ الذي هو، بحسب التعريفات، خِشيةٌ وتوَقّعُ مَكروهٍ أو فواتُ مُرتَجى. والأُلْفُ سَكينةُ النَفْسِ إلى

دَوَام الحال على وَصْلٍ ومَسارّة فلا يَعتورني الفِكْرُ.

آية الحضور إذاً أنْ يُحْمَلَ البَثّ على ظاهر أمره ويَغفلَ القلبُ الفكرَ والإذكارَ إذ يُملّيه المحبوب مؤدّتَه عن إعمال الخاطر فيه: فالمُفردةُ لها المَعْنى الذي يُستعارُ من أمارة المودّةِ والأُنْسِ والمَيْلِ، والعِبَارةُ لا تَحيد إلى مَجازٍ أو استعارةٍ إلّا بما ناله الوضوحُ منهما. ولا تكونُ المُخاطبة بين العاشِقين إلا استئنافاً لحوارٍ سَابقٍ يستمدُّ مَعَانِيْهِ مِن الثّباتِ على حالِ العِشْقِ بينهما ومُفرداته. لذلِك يُبْطِلُ الحضورُ عَملَ الفكر والفَكرِ وهما إعمال الخاطر في الشيء.. وتستكينُ اللواعجُ إذ يَأنس المُحبُّ إلَى توكيدِ المودّةِ بالأَمارة لشدّةِ ما تكونُ عليه منَ الإفْصَاح والوضوحِ.

أمّا الغيبةُ فهي مَبْعثُ الفِكر ومَدَاه، يَنصرِفُ المحبوبُ عنّي، وفي انصرافِه هذا إلغاءٌ للمَتْنِ الذي منه تَستمدُّ العِبارةُ وَجهَ التوكيد فيها. والتوكيدُ في حالِ العاشق ليسَ من أوْجُه تصاريف اللّغة بل من أوْجُه تَصاريف الجسْم: والتوكيدُ هوَ الجَوهرُ الذي

تتقوّمُ به حالُه كعاشق وعِبارتُه التي لا تَبْرحُ صيغةَ البثِّ والاعتراف. إذاً يغيبُ المحبوبُ فتفقد المخاطبةُ سنَدَها ومَتْنَها. ولا يبقى منها سوى الترجيع، وهو التكرارُ والترديدُ، لكنَّه أيضاً في جَوازِ استخدامِه، الإبْدالْ. أرجَعَ الشيءَ شيئاً آخر، أبْدله. ومن معناه رَدُّ الظّاهرِ إلى باطن مُفتَرض. فالتأويلُ، بحسب التعريفات، هوَ التّرجِيْعُ. وما يتّصف بالرَجْعِ هو الصّدى لا الصوت، أي التّرداد الذي يَلِيَ الصوتَ في فَراغٍ ومدى.

يُصبحُ رَوْعُ العاشق في غيبةِ المحبوب وعاءً لترجيعِ الخَطْرة، ويَستغرقُ في إعمالِ الخَاطِرِ في كلِّ ما يتردَّد صداه من عِبارة المحبوب وإشاراته. فالخاطرُ أيضاً هو الهَاجسُ، وخَطَرَ الشّيطانُ بين الإنسان وقَلبهِ، أي أَوصَلَ وسواسَه إلى قلبه؛ والخَاطرُ النفساني، بحسب تعريفات الجرجاني، هو ما يُسَمّى هاجساً، وهو على غِرار الفِكر، ترتيبُ أمورٍ معلومة للتأدّي إلى مجهول. فَما كان مُدركاً وجلِيّاً في حضور المحبوب ثم يُعمَلُ فيه الخاطرُ، يؤدّي إلى مجهولٍ متنه التذكار. وإذْ يطولُ التأوّلُ

إلى العِبارة يُجَرّدها من نَبرة التوكيد وصيغتِه، فتكونُ الحَيْـرة. فالخَـاطـرُ، بحسب الغـزالي، ينتقـلُ من الشيء، إلى ما يناسبُه إمّا بالمشابهة وإما بالمُضادةِ وإمّا بالمُقارنةِ، وهذه كلّها «تراجم كثيرة الكذب»، ويَقينُها الترجُّحُ والوسوَسةُ وربّما سُوء الظنّ.

يسألُ العاشقُ: هل أَراكَ غداً؟

يجيبُ العاشقُ: إذا شِئْتَ.

وظـاهر الإجـابة جليّ القَصْـدِ. وهو إطـلاقُ مشيئةِ الآخر في إبداءِ الرغبةِ في رؤيةِ الآخَر. إلاّ أن الخَـاطِر، إذ يعتقِـد بـالتـرجيـع أواصِرَ المُشـابهـةِ والمُضـادةِ والمقارنـةِ، يُحيلُ جَـلاءَ القَصْدِ، حيـرةً وتلهُّفاً، إلى معضلةِ تَأوّل، ذلك أن إطلاقَ مشيئـة الآخر التي يُبادر إليها المحبوب قـد تشي بالحيـادِ واستواءِ الرغبةِ وعدمِها. أو أَنّها إحالةٌ صريحةٌ لرَجاءِ اللّقيا إلى رغبةِ السَّائلِ لا رغبة المُجيب، وما يعنيه ذلك من توهُّم لبوَادر جَفْوةٍ أو جَفاء.

لا تبدو صيغةُ الترجُّحِ والتعليقِ والإرجاءِ وما شاكلها صـريحةَ العبـارةِ في حِوار العـاشقين، لأنَّ

النبرةَ والحركة المُصاحِبَة، أو حتى النظرة أو الإغضاء، من أشكال التَوكيد التي قد تعجز عنها صيغةُ العِبارة. أمّا الغِيابُ فهو مُتَّسعٌ «ما يحصل في القلب من الأفكار والأذكار..»، والتذكّر توليف وتأليفٌ وصناعةُ مشهد، والمشهدُ لا يقومُ إلا بعناصِر الخَبَر، والخَبَرُ حكايةٌ تَصْنَعُ الواقعةَ من ألِفها إلى يائها. والخبرُ اختراعٌ وتلفيقٌ ونسجٌ على ما تقتضيه السِيَاقةُ. وسياقةُ خَبرِ العاشقين فواتُ المؤمّل وخوفُ الجفوة. والفكرُ، سحابة يوم العاشق وليله، إبتكارٌ لنصِّ الألمِ والفُقْدانِ، يُتلى ويُستعاد.

تصاريف الوَحشةِ: خطابُ الصّدى

[كان المجنون في بدء أمره يَرى ليلى ويألفها ويأنس بها ثم غُيِّبَتْ عن ناظره، فكان أهله يُعزّونه عنها ويقولون: نزوّجك أنفس جارية في عشيرتك، فيأبى إلّا ليلى ويهذي بها ويذكرها وكان ربما هاج عليه الحزنُ والهمُّ فلا يملك مما هو فيه أن يهيم على وجهه، وذلك قبل أن يتوحّش مع البهائم في القفار (...)]

(من أخبار مجنون بني عامر)

XVI

إذا أَوْحَدَني المحبوبُ وتَركني وجَعَلني أَحَداً وَوَحداً، وإنْ مَلاوةً، أفقدني القُدرةَ على التخاطُب، وأفردني، أي أقصاني عن الأنس به والأُنس إليهِ وهذا منتهى الطمأنينة على ما تقول العرب. وإذا أوحدني أقصاني عن نسبي إليه، وهو قوام حالِي، فأُفردُ ولا نَظيرَ لي وأُستَفْرَدُ ولا صَحبَ لي. ذلك أنَّ الأحد، والوَحدَ والوَحِيدَ، في تصاريفِ اللغةِ هو «الشيء» أيضاً الذي تُستَبْدَلُ به كلّ إشارةٍ إلى النَكِرةِ الغَفل.

إذَا غاب المحبوبُ أو غُيِّب أو ابتلاني، أنا

العاشق، بالبَيْنِ، استبدّت بي الوحشةُ والفَرَقُ من الخُلوةِ، وضاعَ من باصرتي القَصْدُ، لأنّ القَصد وجهةُ من أحبّ ودارةُ ألفه وأنسه، ومُخاطَبتي إيّاه شهوداً لا غياباً. وإذْ أفتقدُ القَصْد إليه والوجهةَ، أَسْتَوْحِش، أي أُقيم، ولو في كَنَفِ الصَحْبِ والأهلِ، في مكانٍ وَحْشٍ (خال) وأرضٍ وَحْشَةٍ (قَفْر)، ولا أستأنس إلا بليلٍ هو الهَومةُ (الفَلاة) المضاعفةُ، ويكونُ الهَيْمُ حالي.

فالوحدة والتوحّدُ من أحوالِ العَاشقِ وصِفاتِهِ، إلّا أنَّ الذات مستوحِدةً لا تُعْدَمُ، في المُضاناة، وسيلةً للبَثِّ والنجوى والإخبار وإسرار الشكوى. أمَّا الوَحْشَة فهي مُكابدةُ ما لا يُسَرُّ به وما لا يُقالُ إلّا على سبيلِ الهَذي، أي بِكلامٍ غير معقول يُشبهُ كلامَ المعتوه أو المُصابِ بالحمّى. وفي الهَذي عِبارةُ الوَحْشَةِ وإن تصوراً وتخييلاً. فهو يُشاكِلُ الهَيْمَ أو الهُيامَ الذي هو، نحو الدّوار، جنونٌ يأخذُ الواجدَ حتّى يَهلَك. والهائمُ هو الذاهبُ على وجْهِه، مُستهام الفؤاد أي مُذهَبه لا يَعْثر في أُنسِ الصَحْبِ على العزاء المُرتجى. وقد تَكونُ حالُ

الـوحشةِ مُقيمـة على المَكْثِ لا الهَيْم، أي الفَرَق والجَزَع من الخلوة والقَفْر، وتَنَسّم الخَبـر الذي لا يَزيد العاشِقَ إلا ضنىً وسقاماً. في أخبار مجنـون بني عامرٍ يتردّد لفظُ الشَهْقةِ وهي عِبارةُ تَرْكِ الجَسَد «شيئاً» بلا روح. «فَشَهقَ شهقةً وسقطَ مغشيًّا عليه». فالخبر رسولُ المبايَنة، أي البُعاد، وهو خبرُ الإقامة على الهَيْمِ والضنى، لأن الخبرَ إذ يُنْقَلُ أو يَفْشو لا يَحمـل في متنه إلاّ ثبات الغَيْبةِ. فهـوَ الصِّلةُ التي تؤكد الغِيابَ واشتراكَ القَصْد ولَبْسـه. فالعـاشقُ في حالِ الوَحشةِ هائمٌ ولو في مَقامِه الذي لا يَبْرَحهُ إذ لا مـوضعَ في الفَـلاةِ (وهي الهَوْمـة) يُعْتَلَمُ موطئـاً ومقـاماً. ويُقـال فيه، أي العـاشق إذا استـوحش، أصبح هامةً (من الهَوْم) أي مـاتَ إثرَ كـلّ شهقة. والهَامةُ، على الوزان، من طَير اللَّيلِ (لعلّه الرسول أو الخَبـر) يألفُ المقـابرَ؛ وقَـالتِ العَرَبُ أيضـاً إنّه الصَّـدَى. والـوَحشـةُ هي خِـطابُ الصَّـدى. إذ لا يُخاطبُ العاشِقَ إلا «هاتفُ» الليلِ المقفرة أنحاؤه وثناياه.

لا يكذُبُ العاشقُ، إذ ليس في مُعْجَمِ العِشق

كَذبٌ أو غَلَط، حين قوله لمن يُحبّ: «كلّ ما عداك قفر». والقفرُ كالموامَاة والهوَماة (الهيم والمَوْم التي هي الحمّى، حمّى الهذيان) مفازة واسعة ملساء لا ماءَ ولا أنيس بها، إلاّ الهامة، طير المقابر أو الصدى؛ لأنّ العاشق في وَحْشةِ البيْنِ يُقيمُ على رَجْعِ الصّورةِ والتذّكار، وما يسعى في الجوارِ ومِنْ حولِه يُفرده فإذَا به قد وَحَدَ لا قوم له ولا ملاذ.

فالعاشقُ يُقيمُ على طُوباه وغفلته وانفرادِهِ ويُقيمُ على الشّقاقِ لا صلةَ له إلاّ بذاته، وخطابُه المناجاة لا المُحادثة، وجليسُه الغائِبُ لا الحاضِر، فهو في غيبةٍ عنهم لأنّه في غِيبةٍ عنه. والوَحشةُ التي يُقيمُ عليها هي العُزلَةُ (الوَحْدة) بين الجمع، لأنّ «كلّ ما عدا المحبوب قفر لا أنس به». ولأنّ مرتجاه ليس الإنس (البشر) للمصاحبة والتسرية، بل الأُنس، وهو عند الفرّاء، النسيب الذي يُخاطبُ به المحبوب، والأنسُ أيضاً حديث النساء ومؤانستهن، والأنسُ الطمأنينةُ إلى من نحب.

إذا كانت العُزلة، عزلةُ العاشق، انكفاءً إلى الخلوة مع الذات، فهي استجماعٌ لملكاتِها

واستئناس بِصُحبةِ المحبوب ولو على سبيل الوَهْم والإستيهام. ولكنّ الوحشةَ ليست انفراداً بالذات لكي يستعارَ من الأذكار والفكر هيئة وحضور لمن أقصته المبَاينةُ والنأيُ والبُعادُ، بل هي إقامة الذات على الحنين إلى ذاتٍ في غير محلِّها. فالذاهبُ على وجهه، الشريد، ضاع منه القَصْدُ لأنَّ القَصْدَ بات هُياماً، ومِنَ الحَضْرةِ لم يبقَ إلاّ الصدى. والتوحشُ هو صفةُ ما يترامى وليس فيه الأُنثُ (اللين) بل ذكْرُ (صفاقة) الترجيع . وهو أيضاً نَبْذُ ما يَصطفي الهيئةَ والمَظْهر قبلةً للنظر. وكأنَّ العاشق إذا استوحش وهامَ وَحْشانَ ينالُ منه الفَرَقُ لم يَبتغِ حُسْناً في الهيئةِ والمَلبَس لا يراهُ مَن أحبَّ. وهيامُه صُحبة الوحشِ في القفار تخليةً لذاتٍ أصبحَت على حال نقصان وعَوَز وإعاقة. تقول أغنية أجنبية، ما زال يسمعها من بقي حيًّا من طَائفة الرومنسيين: «أجدني وسخاً من دونك». وشريداً، وتائهاً، ولا ذات لي تجمع ما أنفَكَّ عني من ملكاتٍ كانت لي مُعارة لأنَّ إحداها لا تكون إلاّ لطغيان مَحاسِنِك أنتِ. ولم يعثر النحويّونَ وجمهورُ اللغويين إلاّ على

هذا الجمع من المَحَاسنِ الذي لا واحد له. ولا تدخل اللغة في مِلْكِ الغلَطْ. لكلٍّ حاسة بي جَمْعٌ من المَحَاسِن هي أنتِ. وفي الغيبةِ أفقد الحواس والملكات فلا أجدُني فأستوحشُ في عالمٍ أشبه بالقِفار.

الصّمت معجمُ الاشواق

[(...) والهوى عندنا عبارة عن سُقوط الحُبّ في القَلْب في أوّل نَشأةٍ في قلب المحبِّ لا غير. فإذا لم يُشاركه أمرٌ آخَر وخلصَ لـه وصفا سُمّي حُبًّا. فإذا ثبت سمّي ودّاً. فإذا عانق القلب والأحشاء والخواطرَ لم يبق فيه شيء إلا تعلّق القلب به سُمّي عِشقاً؛ من العِشقِ، وهي اللبلابة المشوّكة.]

(إبن عربي)

XVII

لا يَقربُ العاشقُ لغةً ليست من مَتْنِ خُبره ومَعَاشِه إذ لا يُبالي بما يَلْهَجُ به خِطابُ العُمومِ من التّواصل «إذا اضطروا إلى الحُكم بظاهرِ القولِ باللسان» لأنه (أي اللسان) «ترجمان كثير الكذب» (الغزالي)، أمّاالعبارة فَسَندُ اللّبْسِ ومحلُّه، والصمتُ أوضح بياناً. وعزوفُ العاشق عمّا يُفيدُ الاشتراكَ أمارةً على اعتزالٍ وانعزالٍ، فلا يطمئن إلى أخلاطِ الصّدى مما يُقيمُ على مَقْرُبةٍ، ويلوذُ بالتصدية مما يُخالطُ رَوعَه من تصاريف الشّوقِ. ورَوْعُ العاشقِ كَنَفُ الأصداءِ والتَعلّةِ والتّحنان والخِشيةِ إذْ تُحيلُ الخِشيةُ كلَّ بُعْدٍ جَفاء. فالتجَافي تَباعُد المتلازِمَيْنِ،

والجَفَاءُ البُعدُ، وجَفَاهُ إذا بَعُدَ عَنه وأجفاه أبعَده، والعاشقُ، إذا جَفاه العاشقُ، صارَ مجفواً وجَفَتِ الأشياءُ قاطبةً عليه، أي ثَقُلَتْ عليه واستحالَ أرقُها إلى كَرَبٍ وكَدَرٍ وغُمَّة. وليس في بيان البُعْد والتَباعُدِ ما يفوقُ اللّغةَ قُدرةً على إبدالِ العينِ أثراً. وإدراجِ الحضورِ، في مُلْكِ التّسمية. فما حَلَّ عليه الإسمُ، إصطلاحاً، صار في غيبةِ الدّعاءِ أو النِداء. والمُنادَى ما يُستَدعى تكراراً، بالصوت والصدى، وما يُقصِيه الجَفاءُ أي النُبوّ والتباعدُ (اللّحياني) عن القُرب. فإذا كانت اللّغةُ تسميةَ الأشياءِ وإدراجاً للمِتُونِ في اصطلاح اللّسانِ (وهو لغةً وجارحة) أي في اصطلاح «تُرجُمانٍ كثير الكذب»: «كانت اللغاتُ تورية وبياناً كاذباً، فلا يطمئنُّ العاشقُ لأحكام جفْوَتِها، فَالجَفْوةُ، على غرار العِبارة، تَركُ الصّلةِ بالحِسّ، والإطمئنان إلى الصِّلةِ بالإستدعاءِ والتكنيةِ والمَواراةِ والتَقْليبِ بين أوجُه الاجتمال، أي أنها صفوةُ ما يُجافي ويدعو القَريبين إلى النَأْيِ والبينِ، والبَينُ موضعُ الغيابِ الذي لا يُعتَلمُ أو يُحدُّ أو يُشارُ إليه، وهو موضعُ النداء.

لا تصدقُ لُغةٌ في رَوْع العاشق إلّا إذا كانت حالُه وجدانَها، فكلُّ تسميةٍ تجتفِيه (تقتلعه من الأصول) وكلُّ نداءٍ يؤرّق صحوتَه ونومَه. ولا يُطيقُ العاشقُ من المُفرداتِ إلا حفنةً، لا بل جَفْنةً هي مُعجمُه الذي تُبنى عليه حالُه، وخِطابُه سيُّ الحال، لا سعَةَ فِيه أو جَزَالة، بل سَقَمٌ وسُقام. والسَقَمُ في حال العاشق، إذا ما استبدَّ به الوَلَعُ، هو العيُّ الذي يَلمّ بلغتِهِ وأداته، فتضْمُرُ وتُدْقِعُ لا عوزاً وعجزاً، بل تَعفُّفاً حيالَ مِزاج الجَمْعَ والسِّوى ورَطانة عالمهما. إذْ ما يُجدي المتوحّدُ طوعاً نطقُه ألْفِباءَ التواصُلِ (والتواصلُ حِسابٌ وَعَقْلٌ) حين تربو مفردة أو اثنتان عن حاجةِ العبارة، وحين يفي التكرار بدوام الحال على حالِه، إذْ لا يَعْرِضُ التبدّلُ في حالِ التشوّق بل المقدار الذي لا يني يُستزَاد.

في اللقاء عبارةٌ واحدةٌ هي كل العبارات: أشتاق إليكْ. ولا تحتمل في وجه من الأجه زيادةً أو إضافة. إذ لا يعرف العاشق لاشتياقِه العَاشق مقداراً، بل هي الحال تامّةً تُقالُ (يُعبَّر عنها) مرةً واثنتين وثلاثاً أو أكثر. والغَرَضُ من تِكرارها ليسَ

التعبير عن زيادة في المقدار بل العَوْدُ على بدء لا يطول إليه التَصرُّمُ أو يتقادَمُ عليه العَهْدُ. ذلك أنَّ عَهْدَ العاشقِ لا يَحولُ مهما طال أمدُ سُكْناه إلى من يُحبّ، والزّمنُ ليس قياساً صالحاً له. أشتاقُ إليكِ وأحبّكِ ويُضنيني التفكّر ما أسقمني البُعادُ ولا حاجةَ لي من الدنيا سِوَاكِ.. أو هكذا يُبنى خِطابُ العاشقَ على التوكيد ونفي السلوّ وإثبات السَقَم وإنكارِ الحاجةِ إلى آخر أو شيءٍ هو ثالث المحلّ الذي لا يتّسِع، في الحقيقة، لأكثر من واحد هو الأنا والأنتَ في الدنّو الأقرب، وفي الحيّزِ الذي لا يَدَعْ لجسدينا إلا أن يَسْكُنَا بالمخالطة.

وإذا كانت المخالطة بالأعْضاءِ «أقصى أطماعِ المُحبّ»، على ما يذهب إليه إبن حزم في «رسالة في مداواة النفوس»، فإن العوَضَ عنها لغةً يَقْصُرُ عن بيانِها، لأنَّ من أسماء المُخالطة السرّ، وهو نقيضُ البيان، فكيف يُفْصَحُ عن السرّ دون أن يَفْقِدَ ما يَتقوَّم به سِرّاً. أغلبُ العبارةِ لدى العاشق أشبه بالحجابِ الذي يكتنّه بصُحبةِ العاشق فيُخفيهِ عن باصرة الثالثِ وإدراكه. وفي الخُلوةِ، كَنَفِ

الحجابِ، لا يمكثُ الإثنَان اثنينِ فما جدوى أن تُفْصِحَ العبارةُ عمّا تلهَجُ به الذاتُ لذَاتِها. أشتاقُ إليك، كأني أشتاق إليَّ، وارِدّدُ عبارةَ الشوقِ لأطمئن إليَّ ولا تأخذني الغفلة عنّي فتأخذني عنكِ، وتحلّ اللغةُ بيننا في المحلِّ الوَسَط، فيصبح واحدنا استعارةَ الآخر وكنايتَه لا حقيقته، ويُدرجنا الخَبَرُ (خَبَرُ اللّغةِ، خبرُ الحكايةِ) في الخُرافةِ، أي في الغِيابِ الذي لا تؤثثه إلا اللّغة.

لذلك يلُوذُ العاشِقُ بالصّمْتِ، وَتَرْكِ البيانِ عمّا به؛ ويَقينُه أنَّ حالَه لا لغةَ لها ولا وجهَ خِطاب. ويَقينُه أيضاً أنَّ تَباريحَ النَفْسِ لا تسوقُها العِبارةُ إلاّ تصاويرَ لما زالَ عنه التَبْريح، أي استقامَ في بُلغتِه من الإشارةِ والمعنى. وليس في حالِ العاشق ما يُستَفْرغُ نوالاً وقضاءً، وما يُستنفدُ لغةً وعِبارة. أشتاقُ إليك، يقول العاشقُ، أشتاق إليك، يقول العاشقُ جواباً. ليس في الجوابِ إضافة في ظاهر ما يتقوّم به، لكنَّه يُضيفُ الشوقَ إلى الشوق فلا يُصبحُ الشوقُ أكثر أو أقلّ، بل تدنو الذاتُ من الذات لتماثلهما في حالِ الشوق، ويبرأ الجَسَدُ مِنَ المَنْعِ

والمَنَعةِ فيلتمسُ الجَسدُ (الآخر) تماماً لنقصانِه.

وبيانُ الجَسَد صَمتٌ يقتضيه السرُّ.

والسرُّ هو الأَصْلُ والجَوْهَرُ والصَّفْوة من كـلِّ شيءْ.

ما لا يُقالُ هو تَمامُ مُعجمِ الأَشواق.

فهرس المحتويات

صَدَر للمؤلِّف

- مشاغل رجل هادىء جدّاً - (قصائد) - دار العالم الجديد (١٩٨٠).
- لأروي كمن يخاف أن يرى - (قصائد) - دار المطبوعات الشرقية (١٩٨٥).
- فقط لو يدك - (قصائد) - دار الفارابي (١٩٩٠).
- صحبة الظلال (نصوص) - دار ميريم (١٩٩٢).
- مهن القسوة - (قصائد) - دار الفارابي (١٩٩٣).

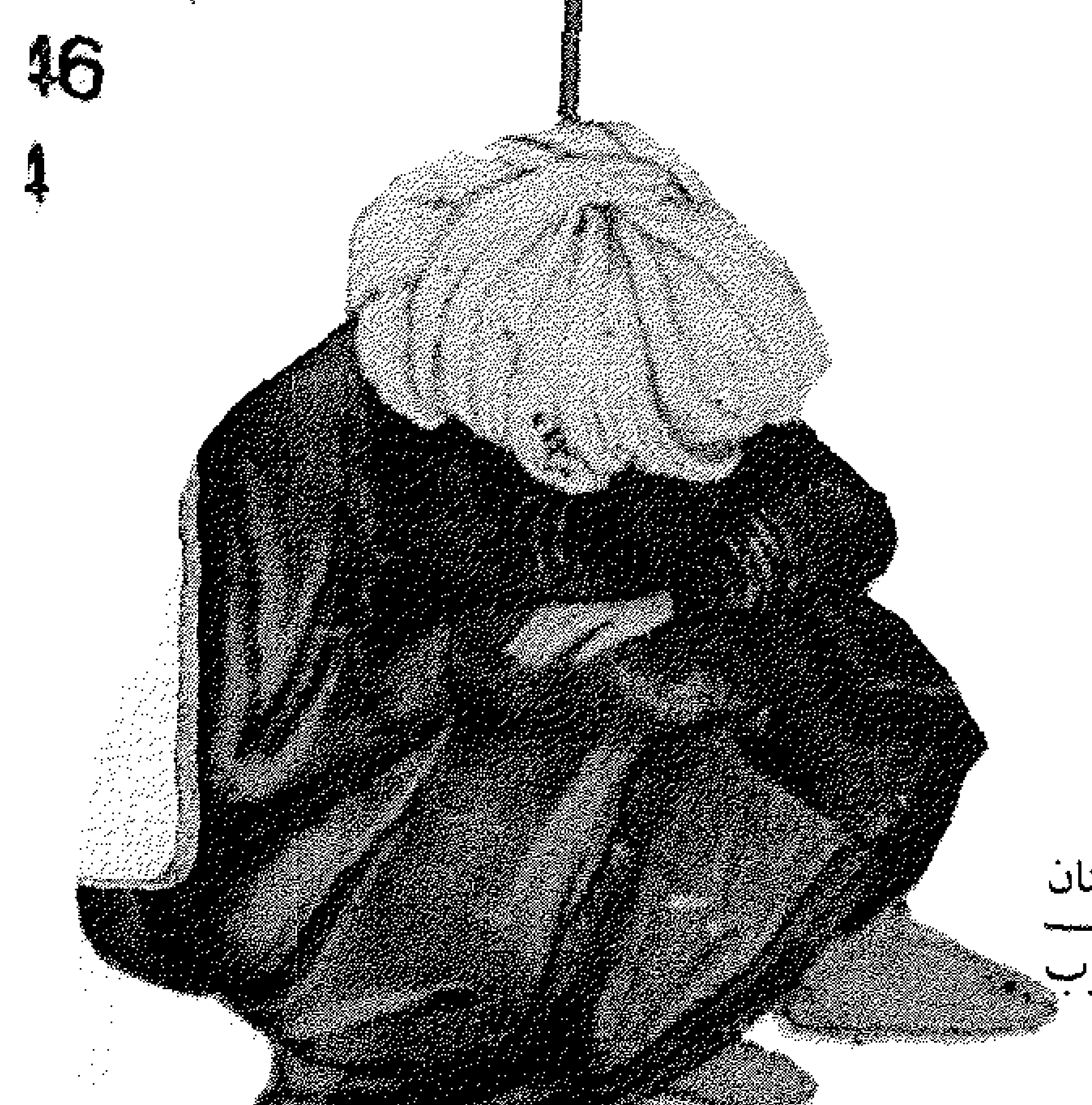
مُعْجَمُ الأشواق

يلُوذُ العاشِقُ بالصّمْتِ، وَتَرْكِ البيانِ عمّا به؛ ويَقينُهُ أنَّ حالَه لا لغةَ لها ولا وجهَ خِطاب. ويَقينُهُ أيضاً أنَّ تَباريحَ النَفْس لا تسوقُها العِبارةُ إلَّا تصاويرَ لما زالَ عنه التَبْريح، أي استقامَ في بُلغتِهِ من الإشارةِ والمعنى. وليس في حالِ العاشق ما يُستَفْرغُ نوالاً وقضاءً، وما يُستنفذُ لغةً وعِبارة. أشتاقُ إليك، يقول العاشقُ، أشتاق إليك، يقول العاشقُ جواباً. ليس في الجواب إضافة في ظاهر ما يتقوّم به، لكنّه يُضيفُ الشوقَ إلى الشوقِ فلا يُصبحُ الشوقُ أكثر أو أقلّ، بل تدنو الذاتُ من الذات لتماثلهما في حالِ الشوق، ويبرأ الجَسَدُ مِنَ المَنْعِ والمَنعةِ فيلتمسُ الجَسدُ (الآخر) تماماً لنقصانِهِ.

وبيانُ الجَسَد صَمتٌ يقتضيه السرُّ.

والسرُّ هو الأَصْلُ والجَوْهَرُ والصفْوة من كلِّ شيء.

ما لا يُقالُ هو تَمامُ مُعجمِ الأشواق.





المركز الثقافي العربي
ص.ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت - لبنان
ص.ب 4006 - الدار البيضاء - المغرب